بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ١ إلى الآية ١٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة النمل: بسم الله الرحمن الرحيم

{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} [سورة النمل:١-٦].

قد تقدم الكلام في "سورة البقرة" على الحروف المتقطعة في أوائل السُّوَر.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ} أي: هذه آيات {الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ} أي: بيّن واضح.

{هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لِمَنْ آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ} الآية [سورة فصلت:٤٤]، وقال: {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [سورة مريم:٩٧].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ} الإشارة هنا يحتمل أن تكون عائدة إلى السورة نفسها، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القرآن، وقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [سورة يونس:١]، و{تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ}، الكتاب يحتمل أن يكون المراد به القرآن، فيكون ذلك من قبيل عطف الصفات فإنه قرآن باعتبار أنه مقروء، وهو كتاب باعتبار أنه مكتوب، وهذا أقرب من قول من قال: إن الكتاب هو اللوح المحفوظ هنا، أو قول من قال: إن الكتاب المقصود به السورة نفسها، فإن هذا لا دليل عليه، ولعل الذي حمل هذا القائل هو محاولة إيجاد معنى جديد؛ ليكون ذلك من قبيل التأسيس، وأن هذا العطف يقتضي المغايرة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكِتَابٍ مُبِينٍ} أي: بين واضح من جهة أنه لا خفاء فيه، ولا ألغاز ولا غموض كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر:١٧]، وهو أيضاً مبين أي يَبين لغيره لمن نظر فيه أنه حق من عند الله -تبارك وتعالى- كما يقول أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- فهو بيّن في نفسه، وهو مبين لمن نظر فيه أنه حق نزل من عند الله -جل جلاله.

ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي: حَسّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غَيهم فهم يَتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء

على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام: ١١٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي أن الله -تبارك وتعالى- حسّن لهم ما هم فيه فأُشربته قلوبهم، وصاروا على هذه الحال إلى أن فارقوا الدنيا، وشواهد هذا من القرآن كثيرة ولا حاجة إلى التكلف في حمل الآية على معانٍ بعيدة متكلفة، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَهُمْ يَعْمَهُونَ} يعني يتحيرون ويترددون ويسيرون على غير اهتداء، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يتيهون في ضلالهم**"، هذا المعنى صحيح، وداخل في معنى العمه: الذي يسير على غير اهتداء، تائه، متحير متردد لا يعرف الطريق التي ينبغي أن يسلكها.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} **أي: في الدنيا والآخرة،** {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} **أي: ليس يخسر أنفسَهم وأموالَهم سواهم من أهل المحشر.**

من أهل العلم من قال في قوله -تبارك وتعالى-: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}: أي في الدنيا، والذي حمله على هذا هو أن الله قال بعده: {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} فهم في الدنيا {لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}، {وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} وهذا لا ضرورة إليه، والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك في الدنيا والآخرة، وليس فيه تكرار مع ما بعده؛ لأنه -تبارك وتعالى- في الأولى بين أن لهم في الآخرة سوء العذاب، وفي الثانية بين أنهم أخسر الناس وأبخسهم للظن في الآخرة، وهذا المعنى لا يؤديه قوله -تبارك وتعالى- قبله {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ} في الأولى بين عاقبتهم من حيث العذاب، وفي الثانية بين أنهم أخسر الناس.

وقوله: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} **أي:** {وَإِنَّكَ} **يا محمد، قال قتادة:** {لَتُلَقَّى} **أي: لتأخذ،** {الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}.

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى} لتأخذ، يؤخذ عليك فتلقّاه وتأخذه، تُلقى القرآن تُحفظ، تُعلم، هذه عبارات أهل العلم بتفسيرها وإنك لتلقى القرآن، ولا يتلقاه من بشر، وإنما يتلقاه من الحكيم العليم الذي يعلم مصالح الخلق، ويضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [سورة الأنعام: ١١٥].

قوله في تفسير العليم والحكيم: أي حكيم في أمره ونهيه، لا شك أن الحكيم أعم من هذا في تدبيره، وتقديره وما إلى ذلك، ولكن أهل العلم كثيراً ما يفسرون الآية -أو بعضها، أو اللفظة- ببعض معناها مما يتصل بالموضع الذي يفسرونه مما يرتبط السياق، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما يخفى عليه أن الحكيم أوسع معنى مما ذكر، لكن هنا في مقام التنزيل تنزيل الوحي، والتشريع تأتي قضية الأمر والنهي، وليس المقام مقام الحديث عن أقدار الله -تبارك وتعالى- وتصريفه لهذا الكون كأمور الخلق وما شابه ذلك، ليس هذا هو المراد، فمثل هذا ينبغي أن يراعى في كلام المفسرين، وكثيراً ما تجد المعنى يُحصر على بعضه مراعاة للسياق، ولذلك تجد هذا كثيراً في تفسير الأسماء الحسنى في أواخر الآيات.

{إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [سورة النمل:٧ - ١٤].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- مذكرًا له ما كان من أمر موسى -عليه السلام-، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: {إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ} أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارًا، أي: رأى نارًا تأجج وتضطرم، فقال: {لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ} أي: عن الطريق، {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تتدفئون به.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} المراد بالشهاب هنا -والله تعالى أعلم- شعلة من نار، ويقال للعود الذي في طرفه شعلة أو جمرة: شهاب، وإن كان الشهاب يطلق على معانٍ أُخر يقرب بعضها من هذا، لكن المراد به هنا هذا المعنى، والله تعالى أعلم، وفيه قراءتان متواترتان: بشهابٍ قبسٍ، أو بالإضافة: بشهابِ قبسٍ، شعلة مقتبسة من النار.

وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: فلما أتاها رأى منظرًا هائلا عظيمًا، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء.

قال ابن عباس وغيره: لم تكن نارًا، إنما كانت نورًا يتوَهَّج.

وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين، فوقف موسى متعجبًا مما رأى، فنودي أن بورك من في النار، قال ابن عباس: أي تقدّس.

{وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: من الملائكة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

قوله -تبارك وتعالى-: {نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا}، قال: أي من الملائكة، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} كما مضى في الأثر المروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنها كانت نوراً، وقال بهذا جماعة من السلف وليس محل اتفاق، فإن بعضهم حمله على ظاهره، وليس المقصود النور، وجاء في بعض القراءات غير المتواترة {أن بوركت النار}، وهذه مروية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وهي مروية عن بعض التابعين كمجاهد، وتنسب إلى أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عن الجميع-، {أن بوركت

النار ومن حولها} فهذه يمكن أن يفسر بها قوله -تبارك وتعالى-: {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني بوركت النار، وبعضهم يقول: المراد بـــ بورك من في النار أي بورك على من في النار، وليس المقصود من بداخل النار، وإنما من يقف عليها وهو موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا قول ابن جرير، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني على من في النار، أي من يقف عندها، يقف عليها أو على من في قرب النار، ليس المقصود من في داخلها وفي وسطها على هذا القول، وبعضهم -وهو مروي عن بعض التابعين- يقول: إنه كان في داخلها ملائكة، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يعني من الملائكة وإنها نور، وليست بنار، وبعضهم يقول: إن هذا نور الله -تبارك وتعالى- فقال فيه ما قال: {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} وليس المقصود أن الله -جل جلاله-، ليس المقصود أنه في هذا المكان أو في داخل هذه النار إنما باعتبار أن هذا نوره -جل جلاله- هكذا فسره بعض السلف {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} أي الله، لكنهم بينوا المراد بأن المقصود بذلك نور الله -جلا جلاله-، هذا مروي عن بعض التابعين كالحسن البصري وغيره، وقول أكثر المفسرين: إن النار هنا يقصد بها النور، {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} يقولون: ملائكة، ومن يقول: إن المقصود بذلك نور الله -تبارك وتعالى- يكون الذي حولها موسى -صلى الله عليه وسلم- ومن يصدق عنه ذلك، يعني أنه حول النار.

وقوله: {وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبه شيئا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

يشير هنا إلى أنه لا يُفهم من قول: {بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} أي الله مثلاً أن المقصود بذلك أن الله -جل جلاله- في هذا المكان أو في داخل هذه النار فقال: فإن الله لا يحيط به شيء من مصنوعاته، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [سورة البقرة:٢٥٥] المبين لجميع المخلوقات يعني أنه مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه -تبارك وتعالى.

وقوله: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أعلَمَه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليُظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حَيَّةً عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك.

أي أن الكبير قد لا يكون سريع الحركة، لكن هنا جاء أنه في غاية الكبر، ثم وصفها بأنها مثل الجان، والآية الأخرى {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ} [سورة الأعراف:١٠٧] وهنا كأنها جان، والجان نوع من الحيات ليست كبيرة لكنها سريعة الحركة، وهناك ذكر أنها ثعبان، فجمع الحافظ بين المعنيين فهي كبيرة وفي حركتها كأنها جان، والجان نوع من الحيات ليس بالكبير سريع الحركة، فجمعت بين الوصفين الضخامة وسرعة الحركة، فأخذت الضخامة والكبر من قوله: {ثُعْبَانٌ}، وسرعة الحركة من قوله: {كَأَنَّهَا جَانٌّ} وليس المقصود بالجان هنا: كأنها جِني، إنما هو نوع من الحيات يقال له ذلك، يعرف بهذا الاسم.

ولهذا قال: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي: لم يلتفت من شدة فرقه {يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيًا وجيهًا.

قوله هنا: {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يلتفت، لم يعقب يعني لم يرجع، التعقيب: الرجوع والكر بعد الفر، يقول: فلان لم يعقب يعني لم يرجع، وموسى -صلى الله عليه وسلم- {وَلَّى مُدْبِرًا} فر هارباً ولم يرجع؛ لشدة خوفه مما رأى.

وقوله: {إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [سورة طه:٨٢]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة النساء:١١٠] والآيات في هذا كثيرة جدًا.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} قال: **هذا استثناء منقطع**، ونحن نعرف أن الاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه فهو بمعنى لكن {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} لكن {مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فلا يكون ذلك مما يعود على ما قبله مما يتصل بالمرسلين -عليهم الصلاة والسلام-، والقول بأنه منقطع قال به جماعة من أهل العلم، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} قالوا: هذا يتصور، هذا في المرسلين واضح، قالوا: هل يصدق هذا على المرسلين؟! فإذا قلت: إنه متصل فقد يفهم من ظاهره أن منهم من يحصل له الخوف، والذي يصدر منه ما يوجب الخوف هو من ظلم، من أهل العلم من قدر هذا الإشكال وقال: إن ذلك لا يكون بالنسبة للمرسلين، والله -تبارك وتعالى- يقول: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، وأولى من يدخل بهذا هم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فلهم الأمن التام فلا تكون حالهم كحال غيرهم من أهل الخوف لسوء أعمالهم وظلمهم، فقالوا: الاستثناء منقطع؛ ليكون قوله: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} على إطلاقه، ثم جاء كلام آخر لا يتصل بالمرسلين منقطع عمن قبله يقرر الله -عز وجل- فيه حقيقة وهو أن من ظلم ثم بدل حسناً من بعد سوء فإن الله يغفر له ذنبه ويمحو إساءته.

ومن أهل العلم من قال: إن الاستثناء متصل، لكنهم اختلفوا في توجيهه، والأصل في الاستثناء الاتصال، فقالوا: نحمل الاستثناء على الأصل وهو أنه متصل، لكنهم اختلفوا في توجيهه، فبعضهم يقول: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- تقع منهم صغائر الذنوب لكن بقيدين كما هو معلوم في محله لا تقع منهم الصغائر التي يسمونها صغائر الخسة، يعني التي تسقط المروءة والعدالة، يقولون: كتطفيف الحبات وسرقة الأشياء التافهة إلى آخره، هذه لا تقع من النفوس السوية، يقول: تقع منهم الصغائر، والله قال عن آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو نبي إنه عصى ربه فغوى إلى غير لك مما يذكرون، فقالوا: المقصود بذلك الصغائر، لكنهم لا يصرون عليها {إِلَّا مَن

ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، ولكنه على هذا المعنى -على هذا القول بأنه متصل -والله تعالى أعلم- لا يخلو من إشكال، يعني {لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} يعني أنه يخاف، {إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} كأن المعنى غير منتظم مع السياق، والله تعالى أعلم، وهذا القول قال به بعض أهل العلم من أهل المعاني كالنحاس، وبعضهم يقول: هو متصل لكن فيه مقدر محذوف، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ} من غيرهم {ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ}، يعني كأنه يقول: {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم {ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ}، لكن الأصل عدم التقدير، ومهما أمكن أن نجعل الكلام مستقلاً فهو أولى من القول بأن فيه مقدراً محذوفاً؛ لأن هذا خلاف الأصل، وهو خلاف الظاهر ولا ضرورة إليه، وابن جرير -رحمه الله- جعله من قبيل المتصل، وحمله على ظاهره تماما، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا} إلا من ظلم بالتبديل، والتغيير أو عمل خلاف ما أمرته، ومثل هذا يعني عمل على خلاف ما أمره الله به، ثم بدل حسناً من بعد سوء فالله يغفر له، هذا كلام ابن جرير، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير من أن الاستثناء منقطع، وأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يتطرق إليهم الخوف، {لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، ولكن ما ذكره بعض من حمل الآية على الاتصال كابن جرير فهو غير مستبعد؛ فإن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم أكثر الناس خوفاً من الله -تبارك وتعالى-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وذكر لهم أنه أشدهم خشية لله -تبارك وتعالى-، وذو النون -عليه الصلاة والسلام- لما ذهب مغاضباً لقومه، وظن أن الله -تبارك وتعالى- لن يضيق عليه، -أن لن نقدر عليه: نضيق عليه- التقمه الحوت {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٨٧]، وآدم -عليه الصلاة والسلام- قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف:٢٣]، والله يقول: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} [سورة البقرة:٣٧] هذه هي الكلمات، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصِدْق من جعل له معجزة، وذلك أن الله -تعالى- أمره أن يُدخل يده في جيب دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهانا لك {إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} بعضهم يقول: هذا متعلق بمحذوف مقدر، يعني اذهب إلى فرعون في تسع آيات، وهؤلاء يقولون: إن العرب تحذف من الكلام اختصاراً ثقة بفهم السامع، {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} لكن مثل هذا الحذف في هذا المقام ليس ذلك مما يكون ظاهراً من السياق، هناك أشياء محذوفة معلومة من السياق لا إشكال فيها فيصدق عليها ما ذُكر، لكن هذا المحل ليس محل اتفاق أن هناك مقدراً محذوفاً، والأصل خلاف ذلك، إذا دار الكلام بين الإضمار والاستقلال فالأصل فيه الاستقلال، هذا الكلام من غير

حذف إذا أمكن حمله على وجه صحيح فهو أولى، وهنا يمكن، والله تعالى أعلم، وبعضهم يقول: هو متعلق بقوله: {وَأَلْقِ عَصَاكَ}، {وَأَدْخِلْ يَدَكَ} فيكون قوله: "في تسع آيات" متعلقاً بما ذكر قبله، يعني في جملة {تِسْعِ آيَاتٍ}، فهما آيتان في جملة تسع، يعني من تسع آيات، وبعضهم يقول: بتسع آيات يعني مع تسع آيات، والأقرب: أنه في جملة تسع آيات يعني المجموع تسع مع هاتين الآيتين اللتين هما العصا واليد، ومن قال: مع تسع آيات فالآيات عنده إحدى عشرة آية، والله يقول: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء:١٠١] والعلماء اختلفوا في عدها فمن أهل العلم من يقول: هنا مع تسع آيات فيكون المجموع إحدى عشرة آية، ثم عدها بعضهم على هذا فقال: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والجدب في الصحراء، ونقص الأموال والثمرات عندهم في بلادهم، والطمس -طمس على أموالهم-، والفلق، والعصا، واليد، ومن قال: إنها في تسع آيات أي في جملة تسع آيات يعني المجموع تسع فهاتان آيتان منها يعني: اذهب في هاتين الآيتين في جملة تسع آيات، أعطاها الله -عز وجل- لموسى -صلى الله عليه وسلم-، ولعل من أحسن ما قيل فيها -والله تعالى أعلم- في تفسير قوله: {فِي تِسْعِ آيَاتٍ} وما ذكره النحاس، وهو ظاهر كلام كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى- من أن المقصود بذلك أن هذه الآية المذكورة هنا داخلة في الآيات التسع، تنضاف إليها مع العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والحجر الذي يضربه بعصاه فينفلق، والطمس على أموالهم، لكن لا يُعد ضرب البحر وانفلاق كل فرق كالطود العظيم، وما حصل من إغراق فرعون ونجاة موسى داخلاً في هذه الآيات التسع؛ لأن هذه الآيات التي أعطاها الله موسى هي براهين على قوته وحاجه بها فرعون، أما البحر فلم يكن من أجل المحاجة ولا البيان، وإنما كان لإهلاكه بعدما تيقن وعرف أحقية وصدق ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم.

وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء:١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك.

{مُبْصِرَةً} يعني واضحة ظاهرة، وهي تدل من نظر فيها على صحتها وصدق من جاء بها، والله يقول: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [سورة الإسراء:٥٩] يعني آية مبصرة، ليس المقصود أن الناقة تبصر، لها عينان ليس هذا المراد، وإنما آية مبصرة أي آية واضحة لا خفاء فيها تدل من وقف عليها على صدق من جاء بالمعجزة.

وقوله: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً} أي: بينة واضحة ظاهرة، {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} وأرادوا معارضته بسحرهم فغُلبوا، {وانقلبوا صاغرين}.

{وَجَحَدُوا بِهَا} أي: في ظاهر أمرهم، {وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، {ظُلْمًا وَعُلُوًّا} أي: ظلما من أنفسهم، سَجِيَّة ملعونة، {وَعُلُوًّا} أي: استكبارًا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه- أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [سورة النمل:١٥-١٩].

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان -عليهما من الله السلام- من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}.

يؤخذ من هذا شرف العلم، وأنه من أعظم ما يؤتاه الإنسان إذا صحت فيه النية، ووُفق الإنسان إلى العمل بمقتضاه، لأن الله -تبارك وتعالى- ذكر هذا في حق سليمان وداود -عليهما الصلاة والسلام-، ثم ذكر بعده قولهما: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} بعدما ذكر ما خصهم به من العلم، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} التفضيل المذكور في هذه الآية هو العلم، وإن كان يدخل في هذا التفضيل ما أعطاهم الله -عز وجل- من الملك والنبوة، وما يتبع ذلك مما خص الله -تبارك وتعالى- به داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثَةَ المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة، ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة))[1].

قوله: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ} هو كما ذكر: المقصود ميراث العلم والنبوة والملك، وأن الملك صار لسليمان -عليه الصلاة والسلام- من بين ولد داود -صلى الله عليه وسلم-، وصار له الملك وأيضاً مع النبوة والعلم، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه ليس المراد بذلك وراثة المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون من جهة،

---

١ - رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، برقم (١٧٥٧)، وأحمد في المسند، برقم (٩٩٧٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ومن جهة أخرى أن ذلك من الأمور المعلومة بالنسبة لغيرهم من الناس، يعني لا فائدة أن يقال: فلان ورث أباه يعني في المال، فإنه يرثه بلا إشكال، وإنما المقصود ورثه في الملك والعلم والنبوة.

وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يُعطَه أحد من البشر -فيما علمناه- مما أخبر الله به ورسوله.

فالله سبحانه كان قد أفهم سليمان -عليه السلام- ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}.

الحافظ ابن كثير هنا ذكر أن الله علم سليمان -عليه الصلاة والسلام- الطير وسائر الحيوان مع أن الآية لم يذكر فيها إلا منطق الطير، وابن كثير -رحمه الله- عممها باعتبار النملة، {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ} ففهم كلامها، قالوا: ذلك لا يختص بالطير، وخصه هنا {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} باعتبار أنه كان من جملة جنود سليمان -عليه الصلاة والسلام-، {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ} قال: كانت الطير تظله، والريح تقله، ومعه العَمَلة من الجن والأنس، والذين قالوا: إن ذلك يختص بالطير فقط وجهوا ما ذكر آنفاً من أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- فهم كلام النملة فقالوا: يمكن أن الطير تنقل له كلام النملة، أو الجن ينقلون له كلام النمل، لكن الطير والجن هل يفهمون كلام النمل؟ فأجابوا بأن النمل داخل في جملة الطير باعتبار أنه يكون له أجنحة، ويطير بها، وهذا قال به بعض السلف مثل الشعبي وأبي قتادة، قالوا: لأنه قال هنا: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} لكن هذا لا يدل على الاختصاص، وإذا أطلق الطير عرفاً لا يدخل فيه النمل، فظاهره هنا علمنا منطق الطير، هنا خص الطير بالذكر لكن ذلك لا يدل على الحصر، فعندنا ما يدل على أنه فهم كلام النملة، فالحافظ ابن كثير عممه فقال: يعلم لغة الحيوانات كلها، وخصص الطير هنا فقال: باعتبار أنه من جمله الجنود المجندين الذين كانوا يذهبون معه ويجيئون في الغزو، وهنا يقول: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} ولا دليل على غيره.

{وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: **مما يحتاج إليه الملك**، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} أي: **الظاهر البين لله علينا.**

قوله: {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: **مما يحتاج إليه الملك**، هذا الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله- بالعموم الاستعمالي، وهو مثل قوله: {يُجْبَى إِلَيْهِ} [سورة القصص:٥٧] يعني مكة أو الحرم {ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}، فهنا قال: {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} يعني لو أراد أحد أن ينظر ويشق الشعرة والشعيرة في الألفاظ، {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} هل أوتي من صنوف الثمار في الدنيا، والمصنوعات، والقُدر، والإمكانات وما إلى ذلك؟ الجواب: لا، وكذا في قوله -تبارك وتعالى- عن ملكة سبأ أنه قال: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣]، أي مما يصلح لمثلها، مما يصلح لملكها، لكن تبقى بعض الأشياء في الدنيا ما أعطيت منها؛ ولهذا قالوا: ما أعطيت عرش سليمان، ولا ملك سليمان، ولا سخر لها الجن، ولا علمت منطق الطير، ولا تحملها الريح، فهذا يسميه الشاطبي بالعموم الاستعمالي، يعني أن العرب تفهم من ذلك المعنى المناسب له دون أن تحمله على العموم بمعنى العموم المطلق مع أن "كل" هي أقوى صيغة من صيغ العموم عند الأصوليين، الله يقول: {يُجْبَى إِلَيْهِ

ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} وقال عن الريح التي أرسلها الله -تبارك وتعالى- عذاباً على ثمود: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥] كل شيء، فالأصوليون كثير منهم يقولون: هذا مما خُص بالحس؛ لأنها لم تدمر السموات والأرض والجبال، والله يقول: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} تدمر كل شيء مما سيقت وجاءت إلى تدميره، وهذا يفهم من الخطاب حسب المقام والمناسبة التي قيل فيها، ولهذا يقال: زرتُ البلاد، وليس لأحد أن يعترض ويقول له: هل زرت كل البلدان؟ ويقول: رأيت الناس ورأيت العباد، ويقول: رأيت الناس واحداً، واحداً، كلهم من أولهم إلى آخرهم، وزعتُ عليهم استبانة حتى عرفت رأيهم في القضية الفلانية، وهكذا، هذه الأشياء تجدونها أحياناً في بعض الدورات التي في البرمجة ونحوها ويعتبرون أن هذا دقة في الكلام، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} ثم قال: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى...} يقول عن مكة: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} ما في أحد من المشركين قال: المانجو في ذلك الوقت ما كان يجبى إليه، والثمار التي في شرق آسيا، وبعض البلاد الغربية ما كان يجبى لمكة في ذلك الوقت، لا، وإنما المقصود مما يجبى عادة لمثله، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعده في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرًّا أظلته منه بأجنحتها.

وقوله: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

صيغة الفعل المضارع تصور كأنك ترى الجيش، وقد اجتمع ويتحرك وقد قُسم وجُعلت كل طائفة منه على منزلتها ومكانها اللائق بها فهم يوزعون، يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدموا، لئلا يحصل انتشار واختلاط وتداخل، والذي يتقدم يعاد فيرجع مكانه {فَهُمْ يُوزَعُونَ}، حشروا فالطيور لا تتفرق يرد أولها على آخرها لا ألا تتقدم مثلاً، وهكذا الجن، وهكذا فإن الأعداد الكبيرة حينما تجتمع فإنهم قد لا يسيرون بالانتظام المطلوب، وإنما يحتاجون إلى من يرد أولهم على آخرهم.

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} أي: حتى إذا مر سليمان -عليه السلام- بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} ففهم ذلك سليمان -عليه السلام- منها.

{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: عملا تحبه وترضاه، {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول النملة للنمل: {ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ} الحطم بمعنى الكسر، وفهم بعضهم: بعض المتكلفين ممن ليسوا من أهل العلم، وبعض من يتكلم على الإعجاز العلمي في القرآن، قال: هذا فيه إعجاز في تركيب النمل، فالنملة فيها مادة الزجاج، فقال: {لا يَحْطِمَنَّكُمْ} والتحطيم يكون للزجاج، طيب وتحطيم الأصنام هل فيها مادة الزجاج؟!، والنار سميت الحطمة على أساس أنها يتحطم فيها الزجاج!، هذه عجمة في الفهم، فعد بعضهم هذا من الاكتشافات العلمية، وأن التعبير هنا جاء في خصوص النمل، إذاً كلمة يحطم أوسع من ذلك، ولا تقال لما يكون من الزجاج خاصة، ولا زال الناس يستعملونها إلى اليوم، فيما كان من الزجاج وغيره، والله المستعان، وهذا الكلام من هذه النملة فيه من اللطف في العبارة والاعتذار لسليمان -عليه الصلاة والسلام- والنصح لقومها، وقد نقل بعض المفسرين فيه أشياء كثيرة هي من قبيل التكلفات المنقولة عن بني إسرائيل، تكلم بعضهم في اسم النملة ومن أي قبيلة، وتكلم في وادي النمل أين يقع؟ كل هذا مما لا يفيد ولا حاجة إليه، ولا دليل يدل على ذلك، وللحافظ ابن القيم رحمه الله كلام جميل بهذا المعنى، حيث قال -رحمه الله تعالى-: "ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم مضرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}، ثم قال: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة، ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: {لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ} فجمعت بين اسمه وعينه، وعرّفته بهما وعرّفت جنوده وقائدهم ثم قالت: وهم لا يشعرون فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم، وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "نهى عن قتل النمل، والنحلة، والهدهد، والصُّرد"[٢][٣].

النملة بعضهم يقول: إنها تسبح كما جاء في حديث النبي الذي قتل قرية النمل، فكانت أمة تسبح، وعاتبه الله على ذلك، وبعضهم يقول: لا ضرر فيها فإن أضرته قتل ما يضره منها، وبعضهم يقول: المنهي عن قتله هنا

---

٢ - رواه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٩١٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٥٧٢٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد برقم (٦٠٨٧)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل وهو ضعيف.

٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٦٩).

النمل السليماني وهو الأسود طويل القوائم سريع الحركة، فإنه لا يؤذي بخلاف النمل الصغير الذي يؤذي، فبعضهم -كالخطابي والبغوي- يقول: المقصود بالنمل النمل السليماني هو الذي نهي عن قتله لا سائر النمل، والنمل يمكن أن يُبعد عن طريق غير القتل، ويمكن أن يُتعوذ منه ثلاثا فيذهب، وهذا مجرب ومشاهد تقول للنمل هذا ثم يختفي، بعض الصحابة -رضي الله عنهم- كان يجلس بين التنورين ويتوعدها فتذهب، إذا شكا أهله النمل قال لها ذلك، والنهي عن قتل النحلة؛ لمنافعها، والصُّرد طائر أكبر من العصفور رأسه كبير، لونه أسود وأبيض كثير الريش، نهي عن قتله، بعضهم يقول: لأنه لا يؤكل، وقتله عبث فهو لا يضر، وما نهي عن قتله فإنه لا يحل أكله، وبعضهم يقول: لا يحل أكله؛ لأنه يفترس صغار الطير، وبعضهم يقول غير هذا، والعرب كانت تتشاءم به؛ نظراً لاسمه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يرفع ذلك فنهى عن قتله، يعني كانوا يكرهونه فيقتلونه ليتخلصوا منه، فنهى عن قتله ليرفع عنهم هذا التشاؤم به، وهو لا يضر، قتله عبث، بخلاف الغراب، والحِدَأة، والكلب العقور، وأمثال هذا.

وقال -رحمه الله-: "وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة))[٤]، وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل، قال: فذهبن، وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة، ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم، ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره وقال: الإمام أحمد حدثنا قال: خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال: فرفعتُ ذلك من الأرض"[٥].

يعني هذا الذي كان يراقبها رفع الجزء هذا من الجرادة، قطعة من الجرادة عجزت عن حملها فذهبت تستدعي جماعة من النمل؛ ليحملنها معها، فأخفاه عنها، فجاءت فما وجدت الجرادة.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم (٣١٤١)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، برقم (٢٢٤١).

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٦٩).

قال -رحمه الله-: "فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعتُه، فعادت تحاول حمله، فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم، فرفعتُه فطافت، فلم تجده فانصرفوا قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخيرة استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا"[٦].

يعني ظنوا أنها تكذب.

وقال -رحمه الله-: "قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب، والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- لما رأى حرص النملة، وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة، وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه، استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضعٍ أكلَ فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرا فلا، ولها صدق الشم وبُعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها، ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة، ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقى نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك"[٧].

---

٦ - المصدر السابق (٦٩-٧٠).

٧ - المصدر السابق (٧٠).

يعني إذا جاء ووضع مثلاً عسلاً أو نحو ذلك، ما يريد أن يصل النمل إليه، وضعه مثلاً في طَسْتٍ فيه ماء ووضع قارورة العسل بوسطهما مثلاً فما تستطيع تخوض الماء حتى تصل إليه فتصعد الجدار ثم السقف فإذا حاذته ألقت بنفسها على العسل.

وقال -رحمه الله-: "وأحمى صانعٌ مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض؛ ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط"[٨].

يعني الحديدة مدورة حامية عند الحداد ألقاها في الأرض لتبرد فكان في الموقع الذي ألقاها فيه نمل فاجتمع النمل في الوسط تماماً ليبتعد عن الطوق؛ لأن كل طرف حار بهذه الدائرة من الحديد، ما فيه مخرج فجلس أبعد ما يكون عن الأطراف، في الوسط، ابتعد عن الحلقة فجلس في المركز، وهذا كلام الحافظ ابن القيم.

تم بحمد الله وفضله.

٨ - المصدر السابق (٧٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٢٠ إلى الآية ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [سورة النمل:٢٠-٢١].

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا، يدل سليمان -عليه السلام-، على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان -عليه السلام-، الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان -عليه السلام- يوما، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، {فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}.

حدَّث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: "نافع بن الأزرق"، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبتَ اليوم، قال: ولِمَ؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته، ثم قال له: ويحك! إنه إذا نزل القَدَر عَمي البصر، وذهب الحَذَر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ} التفقد هو تطلُّب ما غاب عنك والتعرف على أحواله، وهنا جواب سؤال مقدر وهو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما حشر له جنوده من الجن والإنس والطير قال: {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}، فيمكن أن يقال عن كيفية معرفة سليمان غياب الهدهد ببساطة: إنه تفقد الطير {فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ} ولا يبعد أن يكون عند سليمان -عليه الصلاة والسلام- من صنوف الطير لربما ما يمثلها، يعني أن عنده هدهداً واحداً مثلاً من هذا النوع من الطير؛ لأنه قال: {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ} لو كان عنده جمع كبير من هذا النوع لقال: فقدت واحداً من هذا النوع، لكن قال {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ} فـــ"ال" هنا عهدية، فهو هدهد معهود، والسؤال إذا كان بهذا الاعتبار كيف افتقده، كيف عرف أنه غاب؟ أقول: لما تفقد الطير، ولكن هذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو جواب لو صح، لكن ذلك كله مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل، وهذا لا يمكن أن يُتحقق من صحته، بمعنى أنه احتاج إليه؛ لأنه كان إذا نزل منزلاً واحتاج إلى الماء فالهدهد هو الذي يدل على مواقع الماء، وعلى بعده من ظاهر الأرض، وكم يحتاج أن يحفر حتى يصل إلى الماء، فيزعمون أن الهدهد يعرف ذلك، والله تعالى أعلم، ولهذا اعترض نافع بن الأزرق -وهو كثير الاعتراض

على ابن عباس- فقال كيف يرى بهذه القدرة العجيبة يرى الماء تحت الأرض، والصبي يضع له الفخ يعني المصيدة ويضع عليها شيئاً من التراب، ويضع عليها الحبة، فيأتي الهدهد وتصيده هذه المصيدة؟، قال: إذا جاءه القدر عمي البصر، إذا جاء القدر لا ينفعه ما أعطاه الله -عز وجل- من إمكانات، وقُدَر من جهة النظر، هذا الجواب، وبعضهم يقول: إن الطير كانت تظله -عليه الصلاة والسلام- إذا غزا، فالطير من فوقه فغاب الهدهد فظهرت إثر ذلك الشمسُ، مكان الهدهد فارغ، ففقده، فقال: {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ}، وكل واحد من هذه الطيور له مقامه ومكانه، {فَهُمْ يُوزَعُونَ} [سورة النمل:١٧]، ويرد أولهم على آخرهم، لا يحصل اضطراب، ولا تداخل فعرف أنه غاب، وربما يكون هذا وهذا، وكل ذلك يرجع إلى أخبار بني إسرائيل، ويكفي أنه تفقد الطير فقال -نفى ويتفقد جنوده- {مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} وهذا الذي ذكره من أن الهدهد يرى الماء؛ ولذلك احتاج إليه ففقده لما طلبه، هذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله- فيكون ذلك تعليلاً لطلبه، وتعريفاً لسبب فقده، والله تعالى أعلم.

والإمام ابن القيم -رحمه الله- له كلام في هذا قال: "فصل: وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر، قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المُخبَر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكدا بأدلة التأكيد فقال: {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ} وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المُغوى لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله -سبحانه- إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر، والنبات، والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته، ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض، جلت قدرته،

ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه، ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملا إلا ألقى الله عليه رداء عمله"[1].

خلاصة كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الهدهد لما غاب توعده سليمان -عليه الصلاة والسلام- {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، وإنه حينما جاء الهدهد تكلم مع سليمان بكلام الواثق، ولم يحقر نفسه، والعلم والمعرفة قد تؤخذ من الأدنى، ولا يستنكف من ذلك، فالهدهد يخاطب سليمان -عليه الصلاة والسلام- ويقول: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} وهذا يدل على كمال اطلاعه، ومعرفته للواقعة، وأنه قد ألم بها وعرفها من جوانبها المختلفة، ولم يأخذ ذلك من طرف عابر ثم قال: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}، فهو مع الإحاطة أيضاً متيقن، وعبر بالنبأ؛ لأن النبأ لا يقال إلا في الأمور التي تكون في غاية الأهمية، أمور مهمة، وهذا يحصل به تشوف وتشوق لمضمون الخبر، فأجملَ له هذا بهذه الطريقة؛ من أجل جذب نفس السامع حتى يستفرغ قلبه لتلقي الخبر، ثم بعد ذلك قال له: {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}، ابتدأ بالمرأة؛ لأنها هي المقصودة هي المطاعة، والخبر بعد ذلك يتعلق بها لما جاءت، واختبار سليمان -عليه الصلاة والسلام- لها، ثم قال: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} وذكر حالهم، وذكر الداعي، وما تسبب عن وقوعهم في مثل هذا الفعل، وهو عبادة غير الله -تبارك وتعالى- إلى آخر ما ذكر، وأن سليمان -عليه الصلاة والسلام- جاوبه بقوله: {سَنَنظُرُ} وهذا أيضاً يدل على كمال تحريه، وما يطلب من التوثق من الأخبار المنقولة، سننظر، فيتثبت من هذا النقل {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، وقدم الصدق لما يوجبه حسن الظن، ثم قال: {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ} علمه كيف يكون الأدب في مثل هذه الحال، وأنه يتنحى قليلاً؛ حشمة وأدباً كما يُفعل بين يدي الملوك، لكنه يكون بمحل حيث يسمع ما يدور بينهم من المجاوبة والمحاورة، إذا ألقي إليهم هذا الخطاب من أجل أن يرجع بالخبر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكر كلامها.

وقوله: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا}: قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني نتْف ريشه.

وقال عبد الله بن شداد: نتْف ريشه وتشميسه، وكذا قال غير واحد من السلف: إنه نتف ريشه، وتركه مُلْقًى يأكله الذر والنمل.

لم ينتف ريشه؛ لأن الخبر صار صحيحاً، وعقوبة نتف ريشه وتركه ملقى يعني هذه العقوبة المقررة في حال كونه كاذباً.

وهذه كلها لا دليل عليها، قال: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} ما هذا العذاب؟ الله أعلم، بعضهم يقول: قص الجناح لئلا يطير الطائر، وإذا قص جناحه فإن ذلك يؤثر فيه، ويؤلمه، يعني: فقد خاصيته وهي الطيران، وبعضهم يقول: نتف ريشه، يبقى بلا ريش، والطائر إذا نتف ريشه صار في حال من الهيئة، أو الصورة التي تنفر

---

١ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٧٠-٧١)، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر.

عنها النفوس، وتستهجنها، ثم بعد ذلك يكون عرضة لكل آفة، وبعضهم يقول: النتف مع الحبس في الشمس إلى غير ذلك مما ذكر، وبعضهم يقول: يُحبس مع غير نظرائه من الطير، يعني يوضع مع أشكال أخرى من الطيور، فلا يجد سلوته بينها، وكل هذا لا دليل عليه، قال: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} لكن الشيء الذي قد يرد وله وجه أيضاً حينما يسأل عنه هو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- نبي وملك، فهو من أئمة الهدى والعدل، فكيف يعذب بهيمة والنبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن تُجعل البهيمة غرضاً[٢]، وقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها[٣]؟ فالجواب عن هذا أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- سلطه على ذلك فهو من جملة جنوده، ادخره له فعامله بمقتضى هذا، فيكون ذلك خاصاً به، ولو جاء أحد وقال: أنا سأعاقب هذه البهيمة؛ لأنها خرجت قبل أن يؤذن للبهائم بالخروج، انفلتت أو فارقت القطيع أو نحو هذا، ما هي هذه العقوبة التي يريد أن يعاقبها بها؟ هي بهيمة لا تفقه ولا تفهم، فإن كان ما يعهد من ضرب -يعني يسوغ مثله للبهائم- ليردها أو نحو ذلك فلا إشكال، لكن التعذيب أو جعلها محبوسة في الشمس أو....، هذا لا يجوز، لا يجوز تعذيب البهائم، لكن سليمان -عليه الصلاة والسلام- سُلط عليه؛ لأنه كان من جنوده، فيتعامل معهم بمقتضى هذا، فيكون خاصاً بسليمان -عليه الصلاة والسلام-، فهذا الطير يفهم ويرد على سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ويأتي بمثل هذا الخبر، ويعتذر إليه فهو واحد من هؤلاء الجنود، وقد أخذ بعض أهل العلم من قوله: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} مع أن الطائر صغير -هذا الهدهد معروف أنه صغير أصغر من الحمامة فوق العصفور-، قال فيه: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا}، مع أنه لا يحتمل و لربما إذا عذب كثيراً يموت، فأخذ منه بعض أهل العلم معنى في التربية، وهو أن العقوبة على قدر الجناية، وليس باعتبار الجاني، وهذا الكلام فيه إجمال، فيقع على صور صحيحة، ويكون له بعض الأحوال، والصور تحتاج إلى نظر وتأمل، ليس على إطلاقه -والله أعلم- لكن ما يقع عليه على قدر الجناية: الرجم للزاني، فإذا كانت امرأة -والمرأة ضعيفة، وهي عورة- فلا يقال: إنها لا ترجم لضعفها، وإنما العقوبة على قدر الجناية إذا كانت العقوبة الرجم، أوهذا الرجل مصاب بمرض أو أمراض فلا يقال: يعفى عنه من أجل المرض، ولكن الجلد يمكن أن يؤخر حتى يبرأ ثم بعد ذلك يجلد؛ لئلا يأتي الحد على نفسه، لكن إذا كان المقصود الإزهاق مثل الرجم فلا يقال: والله إنه مريض ويعاني من أمراض وضغط وسكر إلى آخره، فالعقوبة على قدر الجناية وليس باعتبار الجاني، وأحياناً يكون هذا الإنسان قد بلغ لكن قد يقال: هذا هيئته هيئة صغير، وكأن صورته أو بنيته صورة أو بنية طفل يقال العقوبة على قدر الجناية، لكن كما سبق بعض الصور يراعى فيها حال الإنسان، حال الجاني في غير الحدود باعتبار أن يفرق بين من كان له حسنات ماحية، وقدم صدق في الإسلام، ومن كان ذلك قد وقع

---

٢ - رواه الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- بلفظ: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يُتخذ شيء فيه الروح غرضا"، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، برقم (١٤٧٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٦٣)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٨١٧).

٣ - رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، برقم (٣١٤٠)، ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٦١٩).

منه على سبيل الفلتة، أو ما كان متمرساً بالشر، والفساد والإفساد، فهذا في باب التعزيرات التي يراعى فيها حال الجاني.

وقوله: {أَوْ لأذْبَحَنَّهُ} يعني: قتلْه، {أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي: بعذر واضح بين.

وقال سفيان بن عيينة، وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قال له الطير: ما خلفك؟، فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: {لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فقال: نجوت إذًا.

وهذا كله ليس فيه خبر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومثل هذا غالباً يكون تُلقي عن بني إسرائيل.

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورة النمل:٢٢-٢٦].

يقول تعالى: {فَمَكَثَ} الهدهد {غَيْرَ بَعِيدٍ} أي: غاب زمانًا يسيرًا، ثم جاء فقال لسليمان: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} أي: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} أي: بخبر صدق حق يقين.

وسبأ: هم: حِمْيَر، وهم ملوك اليمن.

ثم قال: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ}، قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شَراحيل ملكة سبأ.

قوله هنا: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ} يقول: فمكث: يعني الهدهد غاب زماناً يسيراً ثم جاء لسليمان وقال: {أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}، وبعضهم يقول: مكث أي سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما قال ما قال لم يمضِ عليه سوى وقت يسير حتى جاء الهدهد وقال له ما قال، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وإذا نظرت إلى السياق الذي جاء فيه هذا فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول عن سليمان -عليه الصلاة والسلام-: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فمكث: إذا نظرت إلى المخبَر عنه آخراً، فالضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الهدهد، وإذا نظرت إلى السياق واعتبرته فيما مضى فالمتكلم هو سليمان -عليه الصلاة والسلام- فمكث أي سليمان -عليه الصلاة والسلام- ولكن إذا نظرت إلى ما بعده وهو قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ} فهذا يدل على أن القائل الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، وهذا أقرب -والله تعالى أعلم-، وليس سليمان -عليه الصلاة والسلام-، والمعنى في النهاية قريب سواء قلنا: الذي مكث هو سليمان مدة يسيرة، أو قلنا: الذي مكث مدة يسيرة هو الهدهد، المعنى المقصود: أن ذلك لم يطل كثيراً بعدما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام- ما قال حتى جاء الهدهد واعترض إليه بهذا العذر، ثم قال: **وسبأ هم حمير**، يقول الله تعالى: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} هذه قراءة الجمهور، و"سبأ" جمهور القراء يقرءونها مصروفة {بسبإ بنبإ يقين} باعتبار أن سبأ اسم رجل، أو اسم للحيّ، وبعضهم -كابن كبير وابن عمر- يقرؤه غير مصروف {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ} والممنوع من الصرف يجر بالفتحة كما هو معلوم، فهو بهذا يكون باعتبار أنه اسم المدينة، وبعضهم يقول: هو اسم امرأة

سميت بها القبيلة، وهذا لا دليل عليه، أما المرأة --هذه الملكة- فكما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كما هو المشهور- أن اسمها بلقيس ملكة سبأ، وقد جاء في حديث عند أبي داود والترمذي بإسناد صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن سبإ هل هو امرأة أو أرض؟ فكان جوابه -صلى الله عليه وسلم- أنه ليس بأرض ولا امرأة ولا مدينة، وإنما هو رجل له عشرة من الولد وهؤلاء العشرة من العرب طبعاً، ستة تيامنوا وأربعة تشاءموا، يعني أربعة ذهبوا ناحية الشام، وستة ناحية اليمن فهو اسم رجل، وبهذا الاعتبار تكون القبيلة نسبت إليه، يقول: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ}، وليس المقصود هنا في هذه الآية {جئتك من سبإ} هذا الرجل، بنبإ يقين، فيمكن أن يراد به القبيلة التي تنتسب إلى هذا الرجل مثلاً، نسبت إليه، وقد يطلق على الناحية، ولهذا من أهل العلم من يؤكد أن سبأ أيضاً اسم مدينة في اليمن، النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه ليس بهذا ولا هذا، لكن سبأ الذي يُنسبون إليه هو رجل فسميت به القبيلة، هل يمنع هذا تسمى الناحية التي كانوا يسكنون فيها بسبإ؟ لا يمنع، لكن في الأصل هو اسم رجل نسبوا إليه له عشرة من الولد كما سبق، هذا الرجل يقال له: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، والله تعالى أعلم، يقول: **هم حمير، وهم ملوك اليمن.**

وقوله: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن.

هذا كما سبق {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} مما يقوم بها ملكها، ويصلح لمثلها، مع أنها لم تؤت مثلاً تسخير الجن والطير، بعضهم يقول: ما أوتيت مثل لحية سليمان -عليه الصلاة والسلام-، ومثل هذا لا يرد عند من يفقه العربية؛ لأن ذلك محمول على ما كانوا يعهدون من المخاطبة، وهو ما يسميه الشاطبي -رحمه الله- بالعموم الاستعمالي، يعني ليس المقصود به العموم الشامل المحيط بكل الأفراد، ما يبقى شيء في الدنيا إلا أوتيت منه ليس هذا المقصود، فهذا يفهم من السياق أن المقصود به: ما يصلح لهذا وما جرت به العادة.

{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ.

وقال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وُضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} أي: عن طريق الحق، {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ}.

وصف الله عرش هذه الملكة بأنه: {عَرْشٌ عَظِيمٌ}، وهذا القدر هو الذي جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وكتب التفسير مليئة بالروايات في وصف هذا العرش مما هو متلقي عن بني إسرائيل ولا دليل عليه، وفيه من التناقضات والمبالغات ما الله به عليم، يذكرون أشياء عجيبة وأشياء لا يمكن أن تتفق، يعني في مساحته مثلاً في طوله في عرضه أشياء غير متفقة تماماً مما يُعلم أنه من عند غير الله ففيه هذا الاختلاف الكثير.

وقوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} معناه: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [سورة فصلت:٣٧].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} **معناه** {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} **أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده**"، فجعل قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} يتعلق بقوله: {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} يعني لا يهتدون ألا يسجدوا لله، ومثل هذه الأشياء تمر أحياناً عابرة على من يقرأ، لكن فرق بين قراءة وقراءة، فابن كثير يقصد هذا المعنى، قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} كيف تفسرها؟ ابن كثير يرى أنها متعلقة بقوله: {لا يَهْتَدُونَ}، فهم ما عرفوا الطريق إليه -سبحانه وتعالى- وإلى توحيده وعبادته، فصاروا يوجهون العبادة للشمس، الحاصل أن في هذه الآية -أعني قوله -تبارك وتعالى- {أَلَّا يَسْجُدُوا}- قراءة الجمهور بالتشديد في {أَلَّا}، والقدر الذي نتيقنه هو أن الوقف على قوله: {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} على هذه القراءة وقف غير تام، يعني الكلام مرتبط بما بعده، لا زال المعنى لم يكتمل، فالوقف غير تام على قراءة الجمهور: {أَلَّا}، والوقوف على رءوس الآي كثير من أهل العلم يقولون: هو السنة، وقد ورد ما يدل عليه، لكن الكلام في اتصال المعنى، فالمعنى لا زال متصلاً على هذه القراءة قطعاً، لكن يبقى النظر في قوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا} يتعلق بماذا مما قبله؟ لأن هذا يتبين به المعنى، فالعلماء مختلفون في مثل هذا، وقد تقدم قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إنه مرتبط بقوله: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ} فقوله: {أَلَّا} مرتبط بزين كما يقول ابن الأنباري، فيكون المعنى زين لهم الشيطان ألا يسجدوا، وبعضهم يعبر عن هذا "زين لهم أن يسجدوا لله" بمعنى {أَلَّا يَسْجُدُوا}، صدهم، وبعضهم يقول: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم، يقولون: إنه متعلق بقوله: {فَصَدَّهُمْ} صدهم {أَلَّا يَسْجُدُوا}، يعني لئلا يسجدوا، وبعضهم يقول: هو متعلق بقوله: {أَعْمَالَهُمْ} يعني زين لهم هذا العمل القبيح، وهو ترك السجود لله -تبارك وتعالى-، فيكون ذلك من قبيل البدل، أي بدل من أعمالهم؛ ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا، يعني {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} لئلا يسجدوا لله،، وبعضهم كابن كثير -رحمه الله- يقول: متعلق بيهتدون، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله على هذا الاعتبار، ويقولون: إن "لا" زائدة، يعني "ألّا" أصلها "أنْ ولا"، فأدغمتا، بعضهم يقول: إن "لا" هذه زائدة، فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون الزيادة لتأكيد وتقوية المعنى، فالقدر المشترك بين هذا كله أن الوقف غير تام، والكلام لا زال -{أَلَّا يَسْجُدُوا}- مرتبطاً بما قبله.

والقراءة الأخرى للكسائي قراءة متواترة، {أَلَا يَسْجُدُوا} بغير تشديد في{أَلَّا}، وعلى هذا الاعتبار يكون الوقف تاماً أو غير تام؟ {فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} {أَلَا يَسْجُدُوا} وتكون {أَلا} هذه حرف تنبيه واستفتاح، والياء حرف نداء، ويكون اسجدوا فعل أمر كأنه يقول مثلاً: إن هناك منادى محذوفاً تقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، يعني لا تكون الياء للمضارعة، ويدل على هذا أن الفعل مجزوم، والجازم لا يوجد، فدل على أن الفعل هنا ليس مضارعاً {يَسْجُدُوا} ليست يسجدوا بمعنى يسجدون، وإنما ألا يا هؤلاء اسجدوا هذا فعل أمر والياء للنداء، على قراءة الكسائي، وفي قراءة غير متواترة تروى عن ابن مسعود -رضي الله عنه- {هلّا يسجدوا} فتكون للتحضيض، وفي قراءة عن أبيّ -رضي الله عنه- {ألا تسجدوا لله}، والله تعالى أعلم.

وقوله: {الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد.

يعلم كل خبيئة: فيدخل فيه ما يذكره السلف -رضي الله عنهم- من النبات إلى الأرض، والقطر من السماء، يخرج الخبء يعني المخبوء في السماوات فيشمل المطر والنبات في الأرض، وما يخرج منها كالمعادن، وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [سورة الرعد: ١٠].

وقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

إذا كان يخرج الخبء في السماوات والأرض فهو يعلم ما في النفوس وما تكنّه الصدور، لا يخفى عليه خافية {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} فكل هذا يعلمه -تبارك وتعالى- لا يخفى عليه منه شيء.

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد. وإسناده صحيح.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: إن النهي معلل لكونه يدعو إلى الخير، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله، فلا يجوز قتله، ومن ثم فإن أكله يكون محرماً؛ لأنه لا سبيل إلى قتله، فمن قتله فإن ذلك شيء محرم، فلا يستباح به الأكل، وقد يكون نهي عنه لهذا السبب، وقد يكون نهي عنه لغير ذلك، وسبقت الإشارة إلى هذه الأربع: النملة، وما جاء في ذلك، وأن من أهل العلم كالبغوي والخطابي من حمله على النمل السليماني، وليس عموم النمل قالوا: لأنه لا أذى فيه ولا ضرر، والنمل أيًّا كان نوعه مهما أمكن تفادي القتل له فإن ذلك مطلوب، فإنه يمكن أن يستعيذ منه أو نحو ذلك، فإن تضرر به قتله، والنحلة لمنافعها، والصُّرد طائر أكبر من العصفور قليلاً، رأسه كبير، ولونه أسود وأبيض، يأكل صغار الطيور، رائحته غير جيدة، فبعضهم قال: حرم لأنه مفترس يأكل الطيور الصغيرة، وبعضهم يقول: نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله؛ لأن العرب كانت تتشاءم به، وتكره اسمه، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتله؛ ليرفع ما في نفوسهم، وبعضهم يقول: لا ضرر فيه ولا أذى فلا يقتل بخلاف الغراب والحدأة والحية ونحو ذلك، وبعضهم يقول: هو أشبه ما يكون بالجلّالة؛ لأنه منتن، والله أعلم.

{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [سورة النمل: ٢٧ - ٣١].

يخبر تعالى عن قيل سليمان -عليه السلام-، للهدهد حين أخبره عن أهل سبإ وملكتهم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: أصدقت في إخبارك هذا، {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟.

{اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}، وذلك أن سليمان، -عليه السلام-، كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحيةً أدبًا ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: {يَا أَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدبًا، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم.

{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبَل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها.

وقوله: {أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ}: يقول قتادة: لا تَجبَّروا عليّ {وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليّ.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-: اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}، بعضهم يقول: هذا من المقدم الذي حقه التأخير، يعني يكون هكذا "اذهب بكتابي هذا ألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم"، وهذا باعتبار أن التولي عنهم يعني الرجوع إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- وهو لا يرجع إليه قبل أن يعرف خبرهم ماذا كان مردود هؤلاء على هذا الخطاب، والكلام إذا دار بين الترتيب، أو التقديم أو التأخير فالمقدم هو الترتيب، ويبقى كما ذكر الله -عز وجل-، ولا يقال: هذا من المؤخر الذي حقه التقديم، ويكون المعنى ظاهراً، يعني هكذا "اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم" يعني تأخر قليلاً حتى يحصل بينهم مراجعة، وتكون في موضع تستمع فيه ما يجري من المحاورة، والجواب حتى ترجع بالخبر {ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ} ليس معناه الرجوع إلى سليمان {فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} فإذا حصل منه هذا: سمع كلامهم ثم بعد ذلك جاء بالخبر إلى سليمان -عليه الصلاة والسلام- يكون المعنى على هذا الظاهر، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهنا العلماء -رحمهم الله- يختلفون في هذا الذي حصل، يعني هذا الكتاب الذي كتبه سليمان -عليه الصلاة والسلام- هل كان قبل أن يأتيه عرشها أو كان بعد مجيء العرش؟، والسبب الذي أوجب هذا الاختلاف هو أن بعضهم نظر إلى معنى، وهو أنهم قالوا: إن هذا الهدهد جاء بهذا الخبر وسليمان -عليه الصلاة والسلام- قال: {سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} فقالوا: إذا كان الأمر كذلك وهو لم يتحقق من صدق الهدهد، ولا يدري هل توجد أمة بهذه المثابة فعلاً يعبدون الشمس وعندهم ملكة إلى آخره، فكيف يكتب خطاباً ويوجهه إلى قوم لا يدري أنهم موجودون!، كيف يكتب ملك خطاباً، ولا يدري هذا الخطاب يصل فعلاً إلى قوم يعني في هذا الوجود أو لا وجود لهم؟، والخبر أصلاً مختلق وإنما تحقق بطريقته فسأل مَن عنده أو جنوده {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [سورة النمل:٣٨] لما رأى العرش عرف حقيقة ما قاله الهدهد، هكذا

قالوا، فقالوا: إن هذا الكتاب حصل بعد مجيء العرش، أرسل لهم خطاباً بعد ذلك، وقال آخرون: بل هذا كان حينما جاء الهدهد بالخبر، وإلا فإن مثل هذا يردُ على قوله: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا} فهو يتكلم على شيء موجود، وهذا خرج مخرج التحقق، واليقين والتيقن بوجود هؤلاء القوم، {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، ولهذا فإن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذا الخطاب أرسل بعدما جاء الهدهد، فأرسل إليهم هذا الخطاب ليتحقق، أرسل إليهم هذا الخطاب ثم قال للهدهد: انظر الجواب وأتني به، ولا حاجة أن يقال: هذا بعد أن جاءوا بعرشها، والله تعالى أعلم.

ثم قولها هنا: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ} والملأ هم أشراف قومها، وأهل الرأي أهل الوجاهة يتمالئون على الأمر، فهم الذين يبرمونه، أهل الرأي والنظر، {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} وصفته أنه كريم باعتبار المصدر، فهو جاءها من سليمان -عليه الصلاة والسلام- ملك ونبي فصار الخطاب بهذا الاعتبار متصفاً بهذه الصفة {أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}، وبعضهم يقول: إنها قالت: إنه كريم؛ لأنه مختوم على عادة الملوك بختم الكتب، وبعضهم يقول: إنه كريم باعتبار مضمونه، نظرت في مضمونه فوجدته ابتدأ بالبسملة في غاية الوجازة والفصاحة، والحافظ ابن كثير هنا يشير إلى معنى وهو الطريقة التي جاء بها الخطاب -هدهد وتنحّى-، فغاية ما يستطيعه الملوك هو أن يرسلوا عن طريق الحمام الزاجل الرسالة إلى المكان المعد لهذا، أي مكان خاص، برج للحمام يوضع في هذا البلد، وبرج يوضع في ذلك البلد، فتطير تلقائياً حتى تدخل في هذا البرج، ثم يأخذون الرسالة منها، لكن يأتي هدهد ويُلقي عليها ثم يتنحى قليلاً وينتظر هذا لا يعهد، وليس فيه قدرة الملوك، هذا الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله.

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [سورة النمل:٣٢-٣٥].

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} **أي: حتى تحضرون وتشيرون.**

{حَتَّى تَشْهَدُونِ} يعني بحضرتكم، وسمتْ المشورة فتيا {أَفْتُونِي} باعتبار ما تتضمنه من حل ما أشكل عليها.

{قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ} **أي: منوا إليها بعَدَدهم وعُددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا:** {وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} **أي: نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمتثله ونطيعه.**

قال ابن عباس: قالت بلقيس: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}**، قال الرب -عز وجل-:** {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}.

يقول: "**قال الرب -عز وجل-:** {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}" ليست من جملة كلامها، وإنما هذا الذي يسمونه الموصول لفظاً المفصول معنى، يعني أن قوله: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} من كلام الله تصديقاً لقولها وتقريراً له، ليس من بقية كلامها أنها قالت: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، مثلما جاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ}، لما قالوا قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام:٨١]، قال الله:

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ} [سورة الأنعام:٨٢] فهذا يحتمل أن يكون من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تكملة له، ويحتمل أن يكون من كلام الله الفصل بينهم، وذكرنا أمثلة لهذا أيضاً في قصة يوسف -صلى الله عليه وسلم-، { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف:٥٢] هل هو من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- أو من كلام المرأة؟، وأمثلة هذا كثيرة حتى في هذه السورة له أمثلة متعددة، فتارة يكون في نفس الآية جملة منها، وأحياناً يكون في آية بعدها مستقلة، فهذه المرأة استشارت هؤلاء في هذا الأمر الذي يترتب عليه المصير لها ولقومها، وما اغترت أيضاً بقولهم: {نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ} وتفويض الأمر لها تفويضاً مطلقاً على ما يكون من طبيعة البشر من النقص لاسيما المرأة، ومع ذلك كانت بهذا العقل والرجاحة، وقد ذكرتُ في بعض المناسبات ما جرى من غزو التتار، وما حصل بسبب ذلك من الفساد العظيم، والدمار للممالك الإسلامية من بخارى وما في تلك النواحي إلى بلاد الشام، كل هذا وذكرتُ حينها أصل ذلك ومنشأه من أن تيمور كان قد أرسل وفداً من أجل أن يشتروا له كسوة أو نحو ذلك بأموال عظيمة جداً من بلاد المسلمين، وأن الأمير في تلك الناحية كتب إلى الملك الذي يتبع له بما رأى، وكتب له بالرأي وهو أن يقتلهم، وأن يأخذ ما معهم من أموال، فحصل هذا وقتلهم وأخذ الأموال فغضب تيمور، وأرسل له يتوعده ويتهدده، فكان التتر يتقاتلون مع قوم آخرين من الكفار في المشرق، فاستشار هذا الملكُ وكان له ولد له رأي، وسأل عن طاعة التتار لملكهم فأُخبر أنهم يطيعونه، فأشار على أبيه أن يُسلّم لهم رجلاً واحداً وهو ذاك الأمير الذي قتل هذا الوفد، ويَسلّم المسلمون بعد ذلك، وأشار عليه آخرون بأن يغزوهم، وأن يرد الصاع صاعين فعزم على هذا وغزاهم، وكانوا قد شغلوا بحرب أولئك فأخذ ذراريهم، ومن أموالهم فرجعوا إليه موتورين لم يجدوا أولادهم، فجاءوا وعاثوا في الأرض فساداً، ابتدءوا ببخارى وفعلوا الأفاعيل في وصفٍ يطول ذكره لأمور جرت هناك، أحرقوا البلد وافتضوا الأبكار، وفجروا بالأولاد والنساء، وقتلوا الرجال في الجوامع في كل مكان، وهكذا فعلوا حتى في بلاد الشام، أفعال شنيعة والسبب هذا التصرف الذي لم يسدد، ولم يوفق، وجر على المسلمين مثل هذه الويلات، والله المستعان.

ثم عدلتْ إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: -رحمها الله ورضي عنها- ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

قد يكون هذا إذا كان لها بصر ومعرفة بهذه الأمور، وأن سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان لا يقبل، لكن كان المعروف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبل الهدية، ويرد الصدقة، فهنا هل هذا كان خاصاً بسليمان وهي عرفت ذلك أو سألت وعرفت؟، ظواهر الآيات تدل على أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- مع ما عنده من الإمكانات والقُدر وما سُخر له من الريح والجن والإنس لم يكن على دراية من وجودها أصلاً،

فضلاً عن حالها، فكيف عرفت عن سليمان -عليه الصلاة والسلام- وأنه لا يقبل الهدية؟، أو إن كان نبياً -إذا كانت تقصد جنس الأنبياء- فالأنبياء يقبلون الهدية، لكن لربما تكون قصدت شيئاً آخر لا يتصل بالحِل والحرمة، هم من قوم يعبدون الشمس، وإنما نظرت لمعنى آخر وهو أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- إن قبل الهدية فكف عن جهادهم معنى ذلك أنه طالب دنيا، أنه ملك من الملوك، تنفع معه المصانعة ويرضيه العطاء والمال ويكفه عن أهدافه ومقاصده، وإن كان نبياً فهو لا يرضى غير ما دعاهم إليه {وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، كأنها تقول: أوَ غير ذلك؟ عمدت إلى طريقة كما يقال الآن: دبلوماسية، نعطيه هدية فننظر كيف يكون؟ فإن قبل هذه الهدية وصارت بيننا وبينه علاقة، أي تواصل واحترام فبها ونعمت، هل نستطيع أن نكفه عن إرادته ومطلبه هذا الذي تضمنته هذه الرسالة {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} هذه الجملة هي الرسالة فقط، هذا الهدف الآن، التحول من الدين أصعب ما يكون، أصعب الأشياء، الناس يذبون عن دينهم بنفوسهم يفتدونه بنفوسهم ويموتون دونه، وهو يقول: {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} فمعنى ذلك الخضوع له وأن يكونوا تحت طاعته فيكون هذا فيه ذهاب دولتهم، والتحول عن الدين فهي أرادت أمراً دون ذلك، فهي تعطيه بعض الدنيا؛ ليبقى لها ملكها ويبقى لها دينها من هذا الوجه، ربما يكون لأن الأنبياء يقبلون الهدية، يقبلون الهدية لكنها بهذه المثابة أشبه ما تكون بالرشوة، إذا نظرت إليها بهذا الاعتبار كان الكلام لا إشكال فيه، والله أعلم.

{فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} [سورة النمل:٣٦-٣٧].

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك.

هذا يقوله بعضهم ويذكر أوصافاً طويلة في هذا ليس ذلك مما أخذ عن مصدرٍ يوثق به، وإنما هو من أخبار بني إسرائيل، وبعضهم يقول: أهدته مائتي فرس على كل فرس وصيف، أو وصيفة، وأنها ألبستهم لباساً وألبست الوصفاء لباس الوصيفات، والوصيفات لباس الوصفاء، يعني ألبست الذكور لباس الإناث، والإناث لباس الذكور، وأبرزتهم بأحسن حلة وأهدتهم إليه على مائتي فرس، وبعضهم يقول: إنها أرادت أن تختبره بهذا هل يعرف الوصفاء من الوصائف إذا أراد أن يختبرها، ويقول: أهكذا عرشك، بعدما غير فيه؟ لكن كل هذا لا دليل عليه، المقصود أنها أعطته هدية عظيمة تليق بمثله.

والظاهر أن سليمان -عليه السلام-، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: {أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ} أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟!

هذا الهدف الذي أرادته: مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون، هل تنفع معه المصانعة أو لابد من تحقيق مطلبه وهو الدخول في دينه والانقياد له؟.

{فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ} أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

{بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} ليس عامة المفسرين على معناه هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، ليس معناه: خذوا هذه الهدية التي جئتم بها، وافرحوا بها، وإنما المقصود {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} أي: تفرحون إذا قدمت لكم الهدية، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه المصانعات والهدايا لأنكم أهل دنيا، أما أنا فلست كذلك، إنما أطلب الآخرة وأعطاني الله -عز وجل- من الدنيا ما أغناني عن هديتكم هذه {بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ} بل أنتم الذين تفرحون بالهدية إذا أهديت إليكم.

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ} أي: **بهديتهم**.

بعضهم يقول: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ} الخطاب موجه للهدهد، وبعضهم يقول: الخطاب للرسول، وهذا هو الأقرب، لكن لعل الذين قالوا: إن الخطاب موجه للهدهد استشكلوا صيغة المفرد في المخاطبة "ارجع إليهم"، وهم قبل ذلك جمع قال: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ}، وقال: {بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} ثم قال: "ارجع إليهم" بصيغة الواحد، ويقال: لا إشكال فيه، فالعرب تخاطب الجماعة بخطاب الواحد إذا لم تقصد واحداً بعينه منه، يقول: ارجع إليهم، هذه طريقة العرب في الخطاب كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن يكون هذا الخطاب قد وجه لرئيس الوفد، لكبير الوفد ارجع إليهم، ولا إشكال في هذا، والله أعلم.

{فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا} أي: **لا طاقة لهم بقتالهم**، {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا} أي: **من بلدهم**.

لا طاقة لهم بها، يعني إذا كان واحد من الجنود يأتي بعرشها في لحظات كما سيأتي {قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} إذاً ماذا سيصنع بها وبقومها في القتال؟!! وعنده الجن {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} [سورة النمل:٣٩] مقامك في مجلسك هذا، لحظات وهو عندك، العرش من اليمن إلى الشام، فهذا في القتال، هذا العفريت لوحده ماذا سيصنع بهم؟ كيف سيقاتلونه؟ لا قبل لهم بها، يقف دونها السيف والحربة والسهم، كثرة الجنود جن وإنس وطير.

{أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} أي: **مهانون مدحورون**.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان -عليه السلام-، قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسَرّه.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٣٨ إلى الآية ٥٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل:٣٨-٤٠].

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد -والله- عرفتُ، ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئًا، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه -وكان من ذهب مُفصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ- فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خَلفت على سلطانها: احتفظ بما قِبَلك، وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يَرَينَّه أحد حتى آتيك، ثم شَخَصَت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت يدي كل قَيْل منهم ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دَنت جمع مَنْ عنده من الجن والإنس، ممَّنْ تحت يديه، فقال: {يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكر هنا كل ذلك مما أخذ عن بني إسرائيل، وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على صحة هذه التفاصيل، لكن الله -تبارك وتعالى- أخبر أن لها هذا العرش العظيم، وما ذكره الله -تبارك وتعالى- يكفي في بيان حقيقة ملكها، وما أوتيته هذه المرأة من عظمة الملك **{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}**، والمفسرون يذكرون أقوالا في قول سليمان -عليه الصلاة والسلام- هذا هل كان قبل قوله للهدهد: **{اذْهَب بِّكِتَابِي}** [سورة النمل:٢٨]، أو أن ذلك كان بعده، فمن قال بأن ذلك -أعني قوله: **{أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا}**- كان قبل أن يبعث الهدهد بالرسالة قالوا: لأنه لا يمكن أن يكتب لمن لم يتحقق وجوده، فأراد أن يتحقق من ذلك فقال: من يأتيني بعرش هذه المرأة التي ذكر الهدهد؟، فلما رآه بين يديه عرف صدق ما جاء به الهدهد فكتب لها الخطاب، ولكن هذا لا ضرورة له، فظاهر القرآن -والله تعالى أعلم بترتيب الآيات على النسق الذي قصه الله -تبارك وتعالى- يدل على أن ذلك كان بعد إرسال

الخطاب، ولا مانع أن يكتب -عليه الصلاة والسلام- لها تلك الرسالة، ولم يتحقق من قول الهدهد، ثم ينظر بعد ذلك ماذا يكون الرد، وكذلك في قوله: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} بعضهم يذكر أقوالاً بعيدة كالذي يقول مثلاً: إن سليمان -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يستبق إسلامها فيحوز على عرشها ليملكه فيكون غنيمة فإذا أسلمت فلا يحل له شيء من مالها، فأراد أخذه قبل أن تسلم فتحرز ما في يدها أو ما تحت يدها، هذا فيه بعد، ومما يدل على بعده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الخصائص الخمس التي لم يعطهن نبي قبله قال: ((وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي))[1]، فدل على أن الغنيمة ما كانت تحل لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، ولولا كثرة من يذكر هذا القول من المفسرين لأعرضت عنه، ولكن سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان له حكمة في طلب العرش قبل مجيئها، ربما يكون كما يقول بعض أهل العلم: أراد أن يريها عظم ملكه، وما أعطاه الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات فهذا العرش الذي في اليمن يأتي بلحظات قبل أن تصل إليه بمدة ليست بالقصيرة، فهي تحتاج مدة حتى تصل من اليمن إلى الشام فأراد أن يظهر لها عظمة هذا الملك، وأنه أمكن وأقوى منها، وأن تلك الهدايا التي جاءت بها ليست بشيء، فتخضع لسلطان الإسلام، وسلطان سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي حصل، وهكذا ما يذكرون من أنه أراد أن يختبر عقلها لما غير في عرشها {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا}، ثم بعد ذلك رأت فيه ما تعرف وتنكر، فهذا أحسن ما قيل فيه -والله تعالى أعلم- وما يذكر غير هذا لا دليل عليه، وكونها هي التي اختبرت سليمان -عليه السلام- كما يذكر بعضهم أنها أرسلت له الوصائف والوصفاء وألبست الذكور منهم لباس الإناث والعكس؛ لتختبره هل يعرف هؤلاء من هؤلاء ويميز هذا كله لا دليل عليه، ولكنه أراد أن يختبر عقلها -والله تعالى أعلم- ولهذا قال: {نَنظُرْ أَتَهْتَدِي} الآية.

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ} **قال مجاهد: أي مارد من الجن، وقال أبو صالح: وكان كأنه جبل.**

يبقى أن هذا لا دليل عليه -كأنه جبل-، لكن العفريت هو المارد وقد يقال ذلك أيضا للإنس –عفريت- لمن كان له من القُدر والإمكانات الهائلة غير المعهودة فإنه يقال فيه ذلك {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ} ولهذا ميز هنا قال من الجن، فهو وإن كان في الغالب يقال للجن لكنه أيضا قد يطلق بإطلاق صحيح عند العرب على المردة من الإنس، أو على من كان لديه من القوى والقُدر والإمكانات الهائلة غير المعهودة.

{أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} **قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تَزول الشمس،** {وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ}: **قال ابن عباس: أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر.**

فقال سليمان -عليه السلام-: أريد أعجل من ذلك، ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسَخَّر له من الجنود، الذي لم يُعطَه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما

---

١ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، برقم (٤٢٧)، ومسلم -واللفظ له- في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١).

هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ} قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقا يعلم الاسم الأعظم.

وقال قتادة: كان مؤمنا من الإنس، واسمه آصف.

هذا الذي عليه أكثر المفسرين أنه من الإنس، وأنه يعلم الاسم الأعظم، وأنه كاتب سليمان، وإن اختلفوا في اسمه فهذا لا يهم هذا الذي يسمونه بالمبهمات في القرآن، ومثل هذا لا فائدة تذكر من تتبعه والاشتغال به، لكن ذاك من الجن، وهذا من الإنس ذاك استطاع أو يستطيع أن يأتي به في تلك المدة؛ لأنه من المردة، وأما هذا فإنه استطاع أو يستطيع أن يأتي به في مدة دونها من جهة العلم {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ}: قيل معرفة الاسم الأعظم هذا ذكره كثير من المفسرين والسلف -رضي الله عنهم- فمن بعدهم والعلم عند الله -تبارك وتعالى-، لكن ظاهره قد يفهم منه أن هذا من الإنس {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ}، وبعضهم يقول: هو سليمان نفسه -عليه الصلاة والسلام- لكن ظاهر السياق لا يدل على هذا، وكون سليمان -عليه الصلاة والسلام- يقول له المارد: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} فما يرضى بهذا يدل على أنه ما قصد مجرد الإحضار؛ لأن هذا يحصل بقول الأول، وإنما أراد أمراً فوق ذلك وهو ما أشار إليه ابن كثير -رحمه الله-: إظهار عظمة ملكه، وما أعطاه الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات.

وقوله: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} أي: ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك.

هنا قال: **ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه**، إنه لا يكل إلا وهو حاضر عندك، وهذا الذي قاله ابن كثير قاله أيضا ابن جرير، ولعله أقرب الأقوال -والله تعالى أعلم-، والمعنى أنه يمتد بصره ينظر إلى الشيء فقبل أن يغمض، أو قبل أن يرتد إليه طرفه بالحركة الطبيعية؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يديم النظر إلى شيء دون تحريك جفنه من غير إرادة، فالمقصود أنه يمتد طرْفه إلى الشيء ينظر إليه فقبل أن يتحرك جفنه يجد هذا العرش أمامه {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، وبعضهم يقول: قبل أن يصل إلى مداه {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} بمعنى يمتد النظر قبل أن يصل إلى آخر ما يمكن أن يراه الإنسان، فإذا وصل إلى مداه يكون بعد ذلك قد ارتد إلى صاحبه، وليس معناه أنه يحرك جفنه أو نحو ذلك، وإنما المقصود أنه ليس وراء ذلك غاية يصل إليها يعني هذا غايته وانتهى، يعني غاية ما يمكن للبصر العادي أي العين المجردة أن تصل إليه، مدى البصر يعني للإنسان العادي، وبعضهم يحمله على معنى آخر يقول: {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} يعني من أرسلته في حاجة قبل أن يرجع إليك يكون هذا، وهذا غير صحيح، فإن رجوعه قد يكون أطول مما قال الأول {قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} فهو بحسب ما يحصل من هذا الذي أرسله من جهة البطء والسرعة، وكذلك بعد المكان وقرب المكان، فهذا أبعد هذه الأقوال، {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ} تقول: جئت من طرف فلان، {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} من أرسلته قبل أن يرجع إليك، هذا بعيد، والأقرب -والله أعلم- هو قبل أن يحصل للإنسان، قبل أن يغمض عينيه يكون ذلك حاضراً بين يديه، وهذا هو اختيار ابن جرير.

ثم قام فتوضأ، ودعا الله -تبارك وتعالى-.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام.

هذا باعتباره الاسم الأعظم، ومعلوم أن في الاسم الأعظم خلافاً مشهوراً، وقوله: قام وتوضأ وقال: يا ذا الجلال والإكرام لا دليل عليه.

فلما عاين سليمان وملَوْه ذلك، ورآه مستقرًا عنده {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي} **أي: هذا من نعم الله عليّ** {لِيَبْلُوَنِي} **أي: ليختبرني،** {أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}، **كقوله:** {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [سورة فصلت:٤٦]، **وكقوله** {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [سورة الروم:٤٤].

وقوله: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} **أي: هو غني عن العباد وعبادتهم،** {كَرِيمٌ} **أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى:** {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة إبراهيم:٨].

وفي صحيح مسلم: ((يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[٢].

المقصود أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما حصل له هذا الإفضال ما زاده إلا عبودية لله -عز وجل- وشكرا، بخلاف كثير من الناس فإنهم يزدادون بطراً وتعاظماً.

{قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة النمل:٤١-٤٤].

لما جيء سليمان -عليه السلام- بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ}.

قال ابن عباس: نزع عنه فصوصه ومرافقه.

وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر: وما كان أخضر جعل أحمر، غيَّر كل شيء عن حاله.

وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا.

وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا.

هذه التفاصيل لا دليل عليها، ولكن قال: {نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا} يعني: حصل فيه شيء من التغيير، لم يتركه على حاله كما هو، والعلة في ذلك هو ما ذكره من قوله: {نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ}،

---

٢ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

قوله: {نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي}: الأقرب أن المقصود تهتدي إلى معرفته، ولهذا سألها: {أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ}، وبعضهم يقول: تهتدي إلى الإيمان، وهذا لا يخلو من بعد؛ لأن المقام مقام اختبار وسؤال عن عرشها لم يتطرق معها إلى شيء مما يتصل بدعوتها أو نحو ذلك، إنما سألها عن العرش {أَهَكَذَا عَرْشُكِ} فـ{نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي} يعني إلى معرفته، هذا هو الأقرب، والله أعلم.

{فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ} أي: عرض عليها عرشها، وقد غُير ونُكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُبٌّ ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو؛ لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غُير وبُدل ونُكر، فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

هذا ذكره بعض المفسرين منهم ابن كثير -رحمه الله-: أن هذا الجواب فيه حصافة، وقد لا يكون ذلك من مقصودها، يعني قد تكون هي شكت أصلا في الأمر يعني بعضهم يقول: إن سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما أراد أن يختبرها قالت ذلك من أجل أن تُبين عن عقلها ودهائها بحيث إنها إن قالت -لما قال السؤال {أَهَكَذَا عَرْشُكِ}؟- نعم بما جرى عليه من التبديل والتغيير فالجواب غير دقيق، وإن قالت: لا، فهو في أصله عرشها فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} لكن يمكن أن يقال: لا يبعد أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنها لما رأت ذلك التغيير مع بُعد المسافة وكيفية تأتِّي حضوره قبلها، وهذا أمر غير معهود قالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} كما يُسأل الإنسان عن الشيء الذي قد يلتبس عليه ويشتبه فلا يستطيع أن يجزم بذلك ويوجد عنده من دواعي الإثبات ما يمنعه من الإنكار والنفي فقالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} فيمكن أن يجري على هذا النسق، ولا يكون ذلك من مقصودها أنها قصدت إظهار الحصافة، وكمال العقل ونحو هذا، كما يقوله بعض المفسرين، قد لا تقصد هذا أصلا، وإنما سليمان -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يظهر لها عظمة ملكه، وما أعطاه الله من الإمكانات، وأراد أن يختبر عقلها في الوقت نفسه، فسألها هذا السؤال بعد تنكير العرش؛ ليعلمها، أو ليزعزع ثقتها في نفسها، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}: قال مجاهد: سليمان يقوله.

يعني هذه العبارة يقولها سليمان: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} قال مجاهد: يقوله سليمان -عليه الصلاة والسلام-، يعني أن الله أعطاه علما، وهذا هو المتبادر -والله تعالى أعلم- أنه من قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-، {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} فالضمير يرجع إليها في قوله: {مِنْ قَبْلِهَا} فالمتبادر أن المراد ملكة سبأ، وبعضهم يقول: هذا من قول ملكة سبأ، هي التي قالت ذلك: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} يعني قبل هذه الآية، وهؤلاء قد يحتجون على هذا القول باعتبار أن الكلام الذي قبله هو من كلامها {قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}، قالوا: إن الأصل أن هذا الكلام من قائل واحد لمتكلم واحد، وهذا وإن كان الأصل لكنه ليس بالضرورة في كل المواضع؛ فإن السياق قد لا يدل أو لا يساعد عليه، فالقول بأن القائل هو سليمان -صلى الله عليه وسلم- هو الأقرب، وهو اختيار ابن جرير، فالحاصل أنه على رأي القائلين بأنه من قولها يكون العلم الذي قصدته هو العلم بصحة نبوته قبل هذه الآية، يعني قبل أن تصل إليه عرفت أنه نبي، وهذا فيه بعد أعني أنه من قولها، والله أعلم.

وقوله: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}: هذا من تمام كلام سليمان -عليه السلام- في قول مجاهد، وسعيد بن جبير رحمهما الله- أي: قال سليمان: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا

مُسْلِمِينَ}، وهي كانت قد صدها، أي: منعها من عبادة الله وحده، {مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}، وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ، وقاله ابن جرير أيضا.

قوله: قاله مجاهد وسعيد حسن يعني ابن كثير يستحسن هذا القول، وليس المقصود أنه قاله الحسن.

ويحتمل أن يكون في قوله: {وَصَدَّهَا} ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله -عز وجل-، تقديره: ومنعها {مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: صدَّها عن عبادة غير الله {إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}.

قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي.

يعني هنا بقوله: ويحتمل أن يكون في قوله: {وَصَدَّهَا} ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله -عز وجل-، أنه ليس المقصود أن الذي صدها هو سليمان أو الذي صدها هو الله -تبارك وتعالى-، وإنما المقصود أن ذلك من قول سليمان، أو أنه من قول الله -تبارك وتعالى- تعقيباً على ما جرى، يعني الذي قال: {وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ}، يحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل-، وهذا الذي يسمونه الموصول لفظا المفصول معنى، يعني الكلام كأنه لمتكلم واحد، ولكن الواقع أن هذه الجملة لقائل، والجملة الأخرى لقائل آخر، فإذا قلنا: إن هذا من قول الله -تبارك وتعالى- يكون هكذا {فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}، إذا قلنا: إن قوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا} من كلامها فيكون هذا من الموصول لفظا ومعنى، وإذا قلنا -على الأرجح- إنه من كلام سليمان -عليه الصلاة والسلام- فيكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ}، قال سليمان: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ} إذا قلنا: إنه من قول سليمان، وإن ما قبله من قول سليمان -عليه السلام- فيكون هذا من الموصول لفظا ومعنى، وإذا قلنا: إن ما قبله من قولها، وهذا من قول سليمان -عليه السلام- فيكون من الموصول لفظا المفصول معنى، وهكذا إذا قلنا: إن ما قبله -أعني قوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا}- من قول سليمان، وإن هذا -أعني وصدها- من قول الله -عز وجل- يبين سبب انحرافها فيكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى، {وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ} يعني أن عبادتها لغير الله، هذا هو الظاهر المتبادر، وإن قال بعض المفسرين غير ذلك: وهو إن المعنى وصدها ما كانت تعبد من دون الله عن عبادة الله وتوحيده.

وقوله: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا} وذلك أن سليمان -عليه السلام- أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

أصل الصرح في كلام العرب: هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله -سبحانه وتعالى- إخبارًا عن فرعون -لعنه الله- أنه قال لوزيره هامان {ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ...} الآية [سورة غافر:٣٦-٣٧]، والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبنى بناء محكما أملس {مِنْ قَوَارِيرَ} أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل.

والغرض أن سليمان -عليه السلام-، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه

وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعَرَفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله -عز وجل-، وقالت: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

حينما نقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} من قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وإذا كان من قولها يعني قصدت أنها قبل هذه الآية عرفتْ نبوته، والأقرب أنه قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-؛ ولأنها لم تسلم إلا بعد أن دخلت الصرح، وحصل ما حصل، وإذا قلنا: إنه من قول سليمان -صلى الله عليه وسلم- فيمكن أن يقال: إن مراده بقوله: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}: العلم بالله -عز وجل- وتوحيده وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: العلم بقدرة الله -عز وجل-، وهذا لا ينافي ما سبق، وبعضهم يقول: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا} أي من قبل مجيئها، أي العلم بإسلامها قبل أن تأتي، ولكن هذا فيه بعد؛ لأنها لم تسلم إلا بعد ذلك، وهنا قال: قيل لها: {ادْخُلِي الصَّرْحَ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وذلك أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- أمر الشياطين فبنوا لها قصرا عظيما من قوارير** إلى آخره، هذا معناه أن ابن كثير -رحمه الله- يفسر الصرح بالقصر، وهذا معنى معروف عند العرب، إطلاق الصرح على القصر، قصر عظيم بني من قوارير يعني من زجاج وأجرى تحته الماء فهو لصفائه يشف عما تحته، فلما دخلت فيه ظنت أنها تخوض في ماء كثير، لجة {حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا}، وبعضهم كالزجاج يفسر الصرح بالصحن صحن الدار، أو صحن القصر أو نحو ذلك، يعني كأنه وُضع لها بلاط من زجاج، وأجرى تحته الماء، ففسر الصرح بالصحن، {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ} يعني صحن القصر مثلا، وهذا مثل قول من قال كابن قتيبة: إن ذلك بلاط من قوارير من زجاج، وظاهر الآية يدل على أن الذي كان موطئا لأقدامها، وموضعا لمشيها، وما أمرت بالدخول فيه أنه كان من الزجاج، وأنها تمشي على أرض من زجاج؛ ولهذا {حَسِبَتْهُ لُجَّةً} فأجرى تحته الماء وهذا أمر غير معهود، وإلى يومنا هذا يعتبر هذا من الأمور العجيبة جداً مع ما أعطيه الناس من إمكانات وصناعات وما أشبه ذلك، فيدل على أن ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام- وما أعطيه من هذه القُدر أعظم مما توصل إليه الناس اليوم بمراحل كثيرة، يسير في الهواء، وعنده هؤلاء الجن والشياطين يعملون له ما يشاء، تماثيل، ومحاريب إلى آخره، حتى الآبار العجيبة إلى اليوم التي يعجب الناس منها منحوتة في الصخر بطريقة هندسية عجيبة دقيقة، كأنها حفرت بآلات بغاية الدقة، يقولون: هكذا في أطراف الشام موجودة إلى اليوم، وإن ذلك مما حفرته الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم-، ولكن ذلك يدل على قُدر غير عادية قال: {حَسِبَتْهُ لُجَّةً} اللجة معظم الماء، رغم أنه لجة البحر، البحر اللجيّ يعني البحر العميق، فظنت أنه لجة يعني أنه ماء كثير تحتاج إلى الخوض فيه فكشفت عن ساقيها؛ لئلا تبتل ثيابها، وهذا أيضا اختبار آخر لها وإظهار لقدرة سليمان -عليه الصلاة والسلام- وفي البداية نكر لها عرشها، وهذا هو الاختبار الثاني ليظهر لها أن ما أوتيته ليس بشيء إزاء ما أعطاه الله -عز وجل- لسليمان، فإذا كانت هذه المرأة جاءت بهذه المثابة نظرت إلى عرشها الذي ينبغي أن تكون أعرف الناس به، ثم بعد ذلك لُبّس عليها، ثم أمام سليمان -عليه الصلاة والسلام- تريد أن تمشي في مكان من اليابس ثم ترفع وتكشف

عن ساقيها كأنها تخوض بالماء فإن هذا الموقف قد لا تحسد عليه، ملكة ثم يتبين جهلها بحقيقة الأمر، ثم يقال لها: هذا ليس فيه ماء، أنت تمشين على محل يابس، فالإنسان يدرك في هذه المقامات قصوره، وجهله، وتخلفه عن بلوغ هذه المراتب من المعرفة، هذه ملكة عظيمة لها عرش عظيم، ومع ذلك منذ أن جاءت حصل لها هذه المواقف فإن ذلك لا شك أنه يزعزع ثقتها بما عندها، ويذهب ما عندها من غرور، وزهو، وتعاظم -كما هو العادة مما يحصل لأهل الملك والسلطان، وأصحاب الثروة العظيمة، فإذا حصل له مثل هذا تلاشى ورجع إلى ما كان ينبغي أن يكون عنده- فيكون ذلك أدعى إلى إسلامها وخضوعها، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

يقول: **أصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع**، وهذا الذي قاله ابن كثير -رحمه الله- قال به أبو عبيد القاسم بن سلام، واحتج بقوله: {ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [سورة غافر:٣٦]، وقال: **الصرح قصر في اليمن** هذا لا علاقة له بالآية، لكن هو يريد أن يبين الشيء بالشيء، يذكر أن الصرح يقال: للقصر، يقال يوجد في اليمن قصر لا علاقة له بملكة سبأ، هو لا يقصد هذا، والمُمرّد هنا قال: المبني بناء محكما أملس، وبعضهم يقول: هو البناء الطويل، يقال له: ممرد، ومنه قيل للحصن المعروف: مارد، "تَمرَّدَ مارِدٌ وعزَّ الأبْلَقُ"، هذا مثل أو صار مثلا، يقول: بناء محكما أملس من قوارير أي من زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ولهذا قيل: الأمرد الذي ليس في وجهه شعر، فأصل هذه المادة يرجع إلى هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} [سورة النمل:٤٥-٤٧].

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح -عليه السلام-، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} قال مجاهد: مؤمن وكافر، كقوله تعالى: {قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سورة الأعراف: ٧٥-٧٦].

{فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ} هذا الأقرب، والقرآن يدل عليه كما في هذه الآية أن بعض قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- أسلم، ومن نظر في خبرهم في التاريخ رأى أشياء كثيرة من هذا القبيل، وما حصل بينهم من المجاوبة والمحاورة، وما جرى من كبراء قوم صالح -عليه الصلاة والسلام-، الشاهد أن بعضهم أسلم كما يدل عليه القرآن، ولا حاجة لأن يقال: إذا هم فريقان: الفريق الأول هو صالح -عليه الصلاة والسلام-، والفريق الآخر هم قومه؛ لأن من قومه مَن أسلم: {قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ} {فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ} وهذه عادة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يأتون إلى قومهم فيدعونهم إلى التوحيد، فيستجيب من شاء الله هدايته، فينقسم هؤلاء القوم إلى مؤمنين وكفار، والله سمي هذا القرآن بالفرقان؛ لأنه يفرق به بين الحق والباطل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فرق بين

الناس، فافترق قومه إلى مؤمنين وكفار، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- تبرأ من أبيه وقومه.

{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}، أي: لِمَ تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال: {لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} أي: ما رأينا على وجهك ووجوه مَنْ اتبعك خيرا، وذلك أنهم -لشقائهم- كان لا يصيب أحدًا منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قِبَل صالح وأصحابه.

قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَه...} الآية [سورة الأعراف:١٣١]، وقال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [سورة النساء:٧٨] أي: بقضاء الله وقدره، وقال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} [سورة يس:١٨-١٩]، وقال هؤلاء: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ} أي: الله يجازيكم على ذلك {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} قال قتادة: تُبتلون بالطاعة والمعصية.

والظاهر أن المراد بقوله: {تُفْتَنُونَ} أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

قوله -تبارك وتعالى- عنهم: **{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}** السيئة هنا يقول: **أي لِمَ تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته**، هذا هو الأقرب -والله أعلم-، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ويدل عليه قوله تعالى: **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ}** [سورة الرعد:٦] يعني العقوبات المستأصلة، فهذه هي السيئة **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}** [سورة الحج:٤٧]، فهذا هو استعجالهم، وبعضهم يقول غير هذا، ولكن الذي يدل عليه القرآن هو هذا القول، وهنا قال: **{قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}** يعني معناه أنهم تشاءموا به كما قص الله -تبارك وتعالى- عن الأقوام السابقين، وكذلك عن المكذبين للنبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الكافرين بأنهم كانوا أيضا يتشاءمون به، قال: **{قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ}** يقول: أي الله يجازيكم على ذلك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: أي ما يقع لكم علمه عند الله، يقول: قالوا: نحن تطيرنا بك ما يأتينا من شر أو قحط أو نحو ذلك هو من قِبلك، ومن دعوتك ومن دينك، فيقول لهم: ما يقع لكم من خير وشر **{عِندَ اللَّهِ}** أي علمه عند الله -تبارك وتعالى-، ولا شك أن ما يقع للإنسان من خير وشر فهو من الله، ولكن الشر لا ينسب إلى الله -تبارك وتعالى- تأدبا معه، ((والشر ليس إليك))[٣]، وإلا فالله هو خالق الخير، وهو خالق الشر بلا شك، فلا يوجد في الخلق شيء إلا والله -تبارك وتعالى- هو الذي خلقه، ليس في الكون خالق غير الله -جل جلاله-، ولكن تأدبا معه لا ينسب إليه الشر استقلالا، ولهذا تأدب النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((والشر ليس إليك))، ولهذا في مقام الرد، في مقام بيان هذا الأصل قال: **{قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ}** [سورة النساء:٧٨] حينما رد عليهم لما تطيروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ}**، فجاء الرد **{قُلْ**

---

٣ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).

{كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} يعني الحسنة والسيئة، ولما أراد أن يبين منشأ ذلك ومرجعه وسببه قال: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} [سورة النساء:٧٩]، فهذا في مقام التقرير والتبيين، قال لهم: إن ما يصيبكم من الشر كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [سورة الشورى:٣٠]، فالباء السببية تعني بسبب ذنوبكم، لكن في مقام الرد {قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ} أي بتقديره وقضائه -جل جلاله-، فنفرق بين المقامين، فليس ذلك من التعارض، أو التناقض هي كلها من عند الله خلقا وتقديرا وقضاء وقدرا، وتُنسب، وقال: {وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} من جهة التسبب.

قال: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ}، قال قتادة: **تبتلون بالطاعة والمعصية**، يعني تختبرون، قال: **والظاهر أن المراد بقوله**: {تُفْتَنُونَ} **أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال**، والفتنة تأتي لمعانٍ في القرآن من أشهرها الابتلاء والاختبار، بل أنتم قوم تمتحنون وتختبرون، ولما كانت تأتي بمعنى نتيجة الاختبار السيئة يعني العذاب، قال بعضهم: بل أنتم قوم تعذبون، يعني إنما يحصل لكم مما يسوءكم ليس من جهتي ليس من عندي {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي: تعذبون بذنوبكم، وبسبب سوء حالكم، وعدم استجابتكم، بسبب شرككم تعذبون بذنوبكم، وبعضهم يقول: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي: يفتنكم الشيطان عن طاعة الله وطاعة رسوله -عليه الصلاة والسلام- يفتنكم بهذه الطيرة، فيحصل لكم مثل هذا الاعتقاد الفاسد يتلاعب بكم الشيطان، وبعضهم كابن جرير يقول: {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} أي تختبرون بي، أن الله أرسلني إليكم وابتلاكم بي، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- يُبتلون بأقوامهم، والأقوام يُبتلون بالرسل، وهذه الحياة هي دار الابتلاء فالغني يُبتلى بالفقير، والفقير يُبتلى بالغني، والعالم يبتلى بالجاهل، والجاهل يبتلى بالعالم، والصحيح يبتلى بالمريض، والمريض يبتلى بالصحيح، وهكذا، وهذا قاله في مقام الرد عليهم لما تطيروا به، قال لهم: {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} فهذه الأقوال يفتنون: يختبرون إذا قيل إنهم يبتلون بالطاعة والمعصية فهذه الحياة دار ابتلاء، {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك:٢]، وإذا قيل: إنهم يبتلون برسولهم هل يستجيبون أو لا، فكذلك هو مبتلى بهم والله -تبارك وتعالى- يقول: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٦] يسأل الرسل عن أقوامهم ماذا أجابوكم؟ ويسأل الأقوام عن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ماذا بلغوكم؟ أو هل بلغوكم البلاغ المبين؟ وهكذا ما يعطاه الناس من الدنيا والمتع هو ابتلاء، وما يحصل لهم من هذا الشؤم هو نوع ابتلاء، وما يقع في قلوبهم، إلى غير ذلك من المعاني، والله تعالى أعلم.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [سورة النمل:٤٨-٥٣].

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورءوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل

بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضًا، بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ} أي: مدينة ثمود، {تِسْعَةُ رَهْطٍ} أي: تسعة نفر، {يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

لهذا بعضهم يقول: يُنظَر إلى معنى الرهط {تِسْعَةُ رَهْطٍ} قالوا: الرهط اسم للجماعة، قالوا: كأن هؤلاء كانوا من العظماء الرؤساء المتبوعين فكانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويصدون الناس عن الاستجابة لنبي الله -عليه الصلاة والسلام- فكل واحد من هؤلاء يتبعه جماعة، ويمكن أن يكون قد خص هؤلاء أي مع كثرة الكافرين من قومه باعتبار أنهم الأعتى والأشد و الأبلغ و الأكثر في الفساد والإفساد كما قال ابن جرير -رحمه الله-: إن هؤلاء تميزوا على غيرهم وزادوا فخصهم؛ لسعيهم في قتل الناقة، إن الذين تآمروا على قتل الناقة واشتركوا في ذلك هم جماعة، ولكن الأحيمر من ثمود {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [سورة القمر:٢٩]، إن الذي باشر ذلك هو واحد منهم، ولكن الذين بيتوا هذا واتفقوا عليه وكذلك تآمروا على قتل صالح -عليه الصلاة والسلام- هم هؤلاء التسعة، فهم مردة، فشياطين الإنس وشياطين الجن كثير، ولكنه قد يتميز بعضهم بمزيد من الفساد والشر والعتو والتجبر على الله -تبارك وتعالى-، وعلى أهل الإيمان، فهؤلاء لهم مزية في ذلك: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} وهذا يكاد يكون لكل زمان ومكان، المردة، العتاة، المفسدون فمن الناس من يكون فساده و شره وضلاله على نفسه، ومنهم من يحمل أو يتحمل ضلال الآخرين ويدأب في صدهم عن الحق، ويحارب الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباع الرسل غاية المحاربة، والله المستعان.

قال العَوْفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم، قبحهم الله ولعنهم.

قال الله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [سورة القمر:٢٩]، وقال تعالى {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [سورة الشمس:١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني، سمعت عطاء -هو ابن أبي رباح- يقول: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} قال: كانوا يقرضون الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا، كما كان العرب يتعاملون.

وقال الإمام مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطْع الذهب والورق من الفساد في الأرض.

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح -عليه السلام-، مَن لقيه ليلا غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم.

قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [سورة هود:٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحجْر عند شِعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلا فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله صخرة من الهضَب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً} أي: فارغة ليس فيها أحد {بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} ما ذكره هنا من كُمون هؤلاء في الغار لا دليل عليه، وظاهر القرآن يدل على أنهم أرادوا قتله وأهله ليلا {لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} يعني يمكن أن يأتوا إليه في الليل في بيته فيقتلوه مع أهله جميعا {ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ} يعني ولي الدم من عصباته {مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، بمعنى أنهم كانوا يتهيبون من أوليائه وعصباته، وقد لا يكون هؤلاء على دينه أصلا، ولكن الله -عز وجل- قد ينصر أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- بمثل هذا، كما حمى أبو طالب النبي -صلى الله عليه وسلم- حمية وتسخيراً من الله -تبارك وتعالى- له، وهكذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ} [سورة هود:٩١-٩٢] فهم راعوا هؤلاء الجماعة، والرهط والقوم، فيدل على أن الأنبياء أو الدعاة إلى الله -عز وجل- قد يحوطهم الله -تبارك وتعالى- ويهيئ لهم من الأسباب ما كان من هذا القبيل حمية وما إلى ذلك، فهؤلاء تقاسموا وحلفوا بالله -تبارك وتعالى- وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفون الله، أقسموا به، والقسم إنما يكون بمعظَّم، أقسموا أن يقتلوا نبيه -عليه الصلاة والسلام- وأن يقتلوا أهله معه، هكذا تعاهدوا، قال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، وحقيقة المكر هو الأخذ بطريق خفي من حيث لا يشعر بذلك الممكور به، فقد يكون ذلك بأمر يحبه ويقبل عليه، ويدخل فيه الاستدراج بالنعم والعطاء إلى غير هذا من الوجوه الخفية التي يحصل بها الإهلاك من وجه لا يشعر به المهلَك، وصفة المكر ثابتة لله -تبارك وتعالى- على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، حيث يكون ذلك كمالا، يعني ليس بإطلاق، فالمكر ليس من الصفات الكاملة، وإنما يكون كمالا في محال دون غيرها، فالله -تبارك وتعالى- له من هذا الوصف ما يكون كمالا، ولهذا ليس ذلك من أسمائه -تبارك وتعالى-، ولا يقال: إن هذا من صفاته بإطلاق هكذا، ولكن المكر يمدح ويكون مستحسنا إذا كان في موضع يحسن فيه ذلك، يعني إذا وجد مثلا من يفسد ويتأذى الخلق به، فقام من خلصهم منه بحيلة خفية، أوقعه في سوء عمله فإن الناس يحمدون هذا ويرون أن ذلك من الكمال فهذا لا إشكال فيه، {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} [سورة الأعراف:٩٩] ولا يقال: إن ذلك لا يقال على الله -تبارك وتعالى- إلا بمقابل ذكر المكر من

الكافرين والماكرين، لا، وإنما يقال: هذا ليس بلازم، هنا قال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا}، لكن في قوله: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} هل ذكر مكرهم؟ الجواب: لا، وبعض أهل العلم يذكر ذلك في تقريره لهذه الصفة، بعض أهل السنة يقول: ذلك لا يقال إلا في مقابل ذكر مكر الماكرين، ولهذا بعض من يؤول وبعض من لا يشعر بأن ذلك من التأويل يقول: هذا من قبيل المشاكلة، والواقع أن المشاكلة نوع من المجاز، يعني لا حقيقة له، وبعض أهل السنة يعبر بهذا ولا يشعر بما تحته يقول: لا تقال إلا مع ما يقابلها من وصف الكافرين بذلك مثلا، وليس ذلك بلازم؛ فقوله: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ} لم يذكر فعلهم ومكرهم، قال: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} وهذا حقيقة المكر من حيث لا يشعر الممكور به، {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}، فالله -تبارك وتعالى- يقول: لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ}؛ ليحصل الاعتبار بذلك كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [سورة فاطر:٤٣]، جاء بها بأقوى صيغة من صيغ الحصر النفي والاستثناء، {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، فالمكر السيئ يرجع إلى أصحابه، وهنا قال: {أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} على قراءة الجمهور، و{إنا دمرناهم} على الاستئناف جملة جديدة، ويكون ذلك من قبيل التفسير على هذه القراءة التي نقرأ بها {أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}، فهذه عاقبة مكر هؤلاء المجرمين، وذلك وعيد لكل من يتصف بصفتهم، ويحارب دين الله -جل جلاله-، وأولياءه فعاقبته إلى خسار، لكن أولئك لا يفقهون؛ لأن الله -تبارك وتعالى- طمس على قلوبهم، وقد لا يقرءون القرآن أصلا ولا ينتفعون به، ولكن العبرة لأهل الإيمان ينبغي أن يعتبروا بمثل هذا، وأن يثقوا بدين الله، وأنه منصور، وأن الله حافظ دينه، وأن مكر هؤلاء المجرمين يرجع إليهم، وأن دين الله محفوظ، وأن الله مظهر دينه، ولكن ليبلو الخلقَ بعضهم ببعض فينظر في عملهم، فمن الخطأ أن الإنسان ينكسر وتنثني قناته ويتخلى عن مبدئه ودعوته، وما عرف من الحق من أجل كثرة ما يرى من الكيد والصد وسخرية الساخرين، ولمز اللامزين من أعدائه من المنافقين والزنادقة وغيرهم، فهذا لا يزيده إلا ثباتا، فهذه أخبار الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وما يعقب الله ذلك مما ترون، كل هذا لا يزيد المؤمن إلا ثباتا على الحق، وصبرا عليه، وحسن ظن بالله -جل جلاله.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة النمل:٥٤-٥٨]، **يخبر تعالى عن عبده لوط -عليه السلام-، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء -فقال: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: يرى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكم المنكر؟**

يعني هنا الفاحشة، ومعلوم أن الفاحشة هي الذنب العظيم، والمراد بها نوع خاص من الفاحشة -قبحهم الله-، قال: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} اختلف المفسرون في الإبصار هنا هل المقصود به الإبصار بالعين، أو المقصود به الإبصار بالقلب يعني العلم؟، وابن كثير -رحمه الله- فسرها بالإبصار بالعين {وَأَنْتُمْ

تُبْصِرُونَ} يعني أنهم يفعلون ذلك على مرأى من بعضهم، يعني يفعلون ذلك في مجالسهم ونواديهم لا يستترون به، وبعضهم كابن جرير يفسر ذلك ببصر القلب {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} يعني تعلمون قبحها، تعلمون أن هذا فعل قبيح وشنيع وسيئ، وأنه خلاف الفطرة، ولعل هذا هو الأقرب -والله أعلم- لظاهر القرآن، {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} هو يخاطب الجميع، يقول: {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} هذا أقرب من القول بأن المقصود {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي يبصر بعضكم بعضا، وهو يواقع هذه الفاحشة، لكن الذين قالوا: إن المقصود الإبصار بالعين يحتجون بمثل هذا {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، يقولون: يفعلون الفاحشة علانية في مجالسهم -نسأل الله العافية-، والذين لا يقولون بهذا فسروا {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} بتفسيرات، وغير ممتنع -والله تعالى أعلم- أن يدخل في إتيان الفاحشة علانية لكن ليس ذلك يعني بالضرورة أن يكون المراد بقوله: {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي تبصرون ذلك حال المواقعة {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: تعلمون قبحها، وقوله: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} سواء قلنا: إنه فعل الفاحشة أو ما ذكره بعض المفسرين وهو متلقى عن بني إسرائيل مما ذكروا من الأمور التي يقبح ذكرها وروايتها، وتثقل على السمع من القبائح التي كانوا يفعلونها في مجالسهم ولا يستحون، لا يستحي بعضهم من بعض، ليس عندهم شيء من المروءة {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، بعضهم يفسر هذا بأمور قبيحة لا يحسن ذكرها، ويذكرون من جملة هذا التصفيق فهو من فعل السفهاء إلى غير ذلك مما يذكرونه، فالله -تبارك وتعالى- أطلقَ: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} فيأتون في ناديهم المنكرات القولية والفعلية.

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} **أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا، كما قال في الآية الأخرى:** {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [سورة الشعراء:١٦٥-١٦٦].

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} **أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.**

قال الله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} **أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش؛ تكرمةً لنبي الله -صلى الله عليه وسلم-، لا كرامةً لها.**

المقصود بقوله: {فَخَانَتَاهُمَا} [سورة التحريم:١٠] أنها لم تكن على دينه، كانت تدل على ضيفانه، وليس المقصود أنها تقارف الفاحشة؛ لأن ذلك يعود على النبي -عليه الصلاة والسلام- فيكون قدحا في عرضه، ولا يمكن أن يقع ذلك لزوج نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} أنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين أي من الهالكين، مع قومها الهالكين، وبعضهم كابن جرير يقول: من الباقين، فالغابر يقال: للذاهب الهالك، ويقال أيضا: للباقي، فهو من الأضداد، ويمكن أن يجمع بين هذين المعنيين، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني

الكثيرة، فقد تكون هذه المعاني المجتمعة من قبيل المتضادة، وقد تكون من قبيل المتناقضة، وقد تكون من قبيل المتخالفة، ويمكن جمعها أحيانا فهنا {مِنَ الْغَابِرِينَ} من الذاهبين أو من الباقين؟ نقول هي من الذاهبين باعتبار أنها هلكت، وهي من الباقين باعتبار أنها بقيت في المحل، في أرضهم في دارهم فأصابها ما أصابهم من العذاب، فذهبت أي هلكت، وبقيت أي لم تفارق قومها مع لوط -عليه الصلاة والسلام- فهذا كله صحيح.

وقوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} **أي: حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال:** {فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} **أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وَهمُّوا بإخراجه من بينهم.**

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} تنكيره هنا يدل على التعظيم، أي مطر عظيم شديد، وهو مطر غير معهود؛ لأنه من حجارة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٤

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: قال الله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [سورة النمل:٥٩-٦٠].

يقول تعالى آمرًا رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} **أي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى، وأن يُسَلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام -عليهم من الله الصلاة والسلام-، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى:** {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:١٨٠-١٨٢].

وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-، و-رضي عنهم أجمعين-، وروي نحوه عن ابن عباس.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذا الأمر بحمد الله -تبارك وتعالى- يحتمل أن يكون متوجهاً إلى لوط -عليه الصلاة والسلام-، أمره ربه أن يحمده على هلاك قومه الذين كذبوه، وقارفوا هذه الفواحش، ولم يقبلوا نصحه وتذكيره، ويحتمل أن يكون ذلك الخطاب موجهاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يَحمد اللهَ على هلاك المكذبين عموماً، والذين قالوا: إنه متوجه إلى لوط -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن ذلك جاء عقب خبره -عليه الصلاة والسلام- وما جرى له مع قومه، قال: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} [سورة النمل:٥٨-٥٩]، ولكن ظاهر السياق -والله تعالى أعلم- أن ذلك متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تعليم له من الله -تبارك وتعالى-، -وهو خطاب أيضاً للأمة- أن يحمد الله -تبارك وتعالى- على نعمه وآلائه ومن جملتها إهلاك المكذبين، وذلك أن ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عن خبر لوط -عليه الصلاة والسلام- ذكره بصيغة الإخبار عما وقع له مع قومه بطريق الإخبار عن الغائب {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} [سورة النمل:٥٤] فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [سورة النمل:٥٦]، و{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ *

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} هذا الخطاب إلى لوط -عليه الصلاة والسلام- {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} -والله يحكي خبره-: الظاهر أنه خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين قالوا: إنه متوجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: هذا الأصل في القرآن أن مثل هذا الخطاب يتوجه إليه -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن القرآن نزل عليه ويكون ذلك شاملاً للأمة؛ لأن الحمد لا يختص به -عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله -تبارك وتعالى- فيما هو أبين وأوضح من هذا {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا} [سورة الإسراء:٢٣] مع أن أبويه -عليه الصلاة والسلام- قد مات منذ زمن بعيد عن نزول تلك الآيات، ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} العباد الذين اصطفاهم، يحتمل أن يكون المراد بذلك الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والرسل، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا القول، وعزاه لابن زيد وغيره، وذكر الأدلة على هذا {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:١٨١]، فالله -تبارك وتعالى- قال: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحج:٧٥]، وقال لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [سورة الأعراف:١٤٤]، فهؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم الذين اصطفاهم الله واجتباهم، والقول الآخر: أن المراد بذلك الصحابة -رضي الله عنهم-، ومن أهل العلم من ذكر ما هو أعم من ذلك وهم أهل الإيمان، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع بين هذه الأقوال كعادته، إذ لا منافاة بينها، فإن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [سورة القصص:٦٨] فهو كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: اختيار بعد الخلق، فاختار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على سائر الناس، واختار من الأنبياء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، واختار من الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- أولي العزم، واختار منهم محمداً -صلى الله عليه وسلم- فهو أفضلهم، وهكذا أيضاً فإن الله اختار أهل الإيمان على سائر الناس، وجعلهم أمة الإجابة، واختار منهم السابقين بالخيرات، وهذا أمر لا يخفى أن هذا الاختيار واقع في هذه الأمة وفي غيرها من الأمم، فقوله: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} يدخل فيه دخولاً أولياً الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وإذا نظرت إلى غيرهم ممن اصطفاهم الله في الجملة من أهل الإيمان فإن ذلك يصدق عليهم، والسلام غير ممتنع على غير الأنبياء؛ لأنه تسليم من الله -تبارك وتعالى- بإلقاء هذا الاسم –السلام- وهو أمنةٌ ودعاءٌ بالسلامة في وقت واحد، بمعنى أنه إخبار، وكذلك هو دعاء للمسلم بالسلامة، وبعضهم يخصص ذلك بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أن الله اصطفاها على سائر الأمم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢] بطوائفهم الثلاث، ولكن لا دليل على التخصيص فيه بهذه الأمة، وإن كانوا من جملة من اصطفاهم الله -تبارك وتعالى-، وكأن هذا القائل نظر إلى ما ذكر الله من خبر تلك الأمم المكذبة كقوم لوط -عليه الصلاة والسلام- ثم جاء هذا الأمر للنبي -صلى الله عليه وسلم-: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذه الأمة التي اجتباها الله، وأورثها الكتاب والنبوة، والله أعلم.

وقوله: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}: استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى.

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى: "قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هل السلام من الله تعالى فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعا؟"[1].

يعني: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} المأمور به أن يحمد الله انتهى، وقف، ثم الله يقول: {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} يكون ذلك من كلام الله، وهذا من الموصول لفظاً المفصول معنى، ويحتمل أن يكون ذلك من جملة القول المأمور به {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}.

وقال -رحمه الله-: " فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الأمرين، ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح، فيُرجَّح كونه داخلا في جملة القول بأمور: منها اتصاله به، وعطفه عليه من غير فاصل"[2].

يعني {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} هذا من جملة المأمور به كقولك: قل كذا وكذا، وهذا يوجد ما يشهد له:

أولاً: أنه معطوف على الحمد، فيكون من جملة ما أمر به.

وقال -رحمه الله-: "وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد منهما هذا هو الأصل، ما لم يمنع منه مانع"[3].

يعني أن العامل فيهما واحد، فالأصل في الكلام الاتصال لفظاً ومعنى ما لم يقم دليل أو قرينة على التفريق بينهما.

وقال -رحمه الله-: " ولهذا إذا قلت: الحمد لله، وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل، ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب"[4].

إذا قلت: قل كذا وكذا، فهو عطف جملة على جملة هي نظيرة لها، لكن إذا قال: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} يكون هذا المأمور به طلباً {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} إذا كان هذا من كلام الله يكون هذا خبراً، عطف الخبر على الطلب، هذا وإن كان صحيحاً في اللغة إلا أنه قليل، وبعضهم أنكره، وقال: لا يصح في اللغة، لكن هو صحيح وإن كان قليلاً في الاستعمال، المقصود: انظر طرق الترجيح والقرائن التي يذكرها.

وقال -رحمه الله-: "ومنها: أن قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ظاهر في أن المُسلِّم هو القائل الحمد لله؛ ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل: سلام على عبادي"[5].

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ} لو كان من الله قال: {وسلام على عبادي الذين اصطفيت}.

---

١ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٣٩٧/٢)، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط١، سنة النشر: ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٢ - بدائع الفوائد، لابن القيم(٣٩٧/٢).

٣ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

٤ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

٥ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

وقال -رحمه الله-: "ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور: أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى"[٦].

هذه مرجحات القول الآخر أنه مفصول، وأن الثاني من كلام الله، يقول يشهد له القرآن.

وقال -رحمه الله-: " كقوله: "سلام على نوح في العالمين"، "سلام على إبراهيم" "سلام على موسى وهارون" "سلام على إل ياسين".

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم، أما الأول: فقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:١٨٠-١٨١] وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضُلّال خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سَلِموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم.

وإذا سلِم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص، وكذب وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل، فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ} [سورة الأنبياء:١١٢]، وقوله: {وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} [سورة المؤمنون:١١٨]، وقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [سورة الأعراف:٨٩]، ونظائره كثيرة جدا.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاما واحدا"[٧].

ذكَرَ القرائن التي تشهد للقول الأول أنه من جملة المأمور به {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}، ثم ذكر القول الآخر {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}، ثم الوقف يكون هنا تاماً ثم يكون ذلك من كلام الله -عز وجل- يقول مُسلّماً: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ذكر أدلة هذا وأدلة هذا، والقرائن التي تشهد لكل منهما، ثم جمع بين القولين، والآية إذا احتملت معنيين أو أكثر كل واحد يشهد له القرآن ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب -تبارك وتعالى- فهو الذي حمد نفسه وسلم على صفوة عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك فإذا قال الرسول:

---

٦ - المصدر السابق (٣٩٧/٢).

٧ - بدائع الفوائد، لابن القيم(٣٩٧/٢-٣٩٨).

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا -تبارك وتعالى- الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى"[٨].

هذا الوجه في الجمع بهذه الطريقة: من جهة المعنى أنه مأمور به، وحينما أمر الله به فهو بهذا الاعتبار مُسلِّم على عباده الذين اصطفى؛ لأنه أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بذلك، لكن من الناحية اللفظية هذا كلام الله يسلم حينما يقول: {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}، وكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- المأمور به: هذا لا يمكن أن تقوله في آنٍ واحد في هذا الموضع، هذا الكلام لمتكلميْن، إما أن يكون الوقف هنا {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} إذا قلت بأن الوقف تام {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} فيكون من المفصول معنى، هناك يأمره {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} ثم الوقف، ثم الله يقول: {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} ففي هذا الموضع التسليم ليس من جملة المأمور به، وإما أن يكون غير ذلك، فهنا من الناحية اللفظية لا يمكن الجمع -والله أعلم-، هذا كله صحيح في هذا الموضع من الناحية اللفظية أن هذا من كلام الله المأمور به أعني قوله تعالى: {وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى}؛ لأنه هو الذي يسلم، وأنه في نفس الوقت مما أمر به نبيه -صلى الله عليه وسلم-، لكن من ناحية المعنى حينما أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذا فهو تسليم منه على نبيه -عليه الصلاة والسلام-، -والله تعالى أعلم-، هذا من جهة المعنى، فهذه طريقة في الجمع بين الأقوال، وطرق الجمع متعددة، ومن تتبع المواضع التي في هذا يستطيع أن يحصّل من ذلك صوراً كثيرة، والله أعلم.

وقال -رحمه الله-: "وكلمة السلام هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول، فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهي الحمد لله، ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا"[٩].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ} أي: تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله: {وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} أي: جعله رزقا للعباد، {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ} أي: بساتين {ذَاتَ بَهْجَةٍ} أي: منظر حسن وشكل بهي.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} الحدائق قال: **البساتين**، والحديقة تطلق في كلام العرب على البستان الذي له حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو بستان، فما له حائط يقال له: حديقة، والذي ليس له حائط يقال له: بستان، يقول: "**منظر حسن وشكل بهي**" يعني يبتهج من ينظر إليه.

{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون،

---

٨ - بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزيه (٣٩٨/٢).

٩ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (٥١٤)، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة الزخرف:٨٧]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة العنكبوت:٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: أإله مع الله يُعبد، وقد تبين لكم، ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق؟!.

ثم قال: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي: يجعلون لله عدلا ونظيرًا.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} يعني: ما صح لكم، ومعنى النفي هنا الحظر، يعني هذا لا يتأتى لكم ولا يمكن، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ} [سورة التوبة:١٢٠] يعني: ما صح لهم، وهذا بمعنى الحظر، أي لا يجوز لهم ذلك، لكن هذا يدل على الامتناع فإن ذلك لا يتأتى للمخلوقين، فالامتناع ليس المقصود به الامتناع الشرعي {مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}، وإنما الامتناع العادي، يعني أن ذلك لا يمكن {أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا} تستطيع أن تقول: هو ممتنع واقعاً ولا يمكن أن يحصل ذلك من المخلوق؛ لأن ذلك إنما يختص به الخالق وهو الخلق، الامتناع: منه ما هو امتناع شرعي، ومنه ما يكون من قبيل الامتناع العادي في مجال العادات، ومنه ما يكون من قبيل الامتناع العقلي يعني المحال عقلاً الذي لا يتصوره العقل أصلاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي: أإله مع الله يعبد؟،** ومن أهل العلم من يقول: أإله مع الله أوجدها وخلقها؟! فهما قولان مشهوران، وهكذا في قوله: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، أيضاً يحتمل معنى آخر {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي: عن الحق، يعدلون عنه ويختارون طريق الباطل فهم يعدلون عن الحق إلى الباطل، هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل هذا وهذا، فإذا كانوا يجعلون لله -تبارك وتعالى- نظيراً على المعنى الأول فهم في الواقع قد عدلوا عن الحق إلى الباطل، فهذان المعنيان صحيحان ولا منافاة بينهما، والله تعالى أعلم، فهذا والذي قبله، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أإله مع الله يعبد؟، أإله مع الله خلقها وأوجدها: كل ذلك صحيح، فهذا وإن كان من قبيل اختلاف التضاد إلا أنه يرجع إلى اختلاف التنوع باعتبار الجمع بين هذه الأقوال.

قال ابن القيم -رحمه الله-: " يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده فهو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: أإله مع الله فعل هذا؟، حتى يتم الدليل فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى هل مع الله إله آخر؟ من غير أن يكون المعنى فعَلَ هذا فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك

الثاني: أنه لا يتم الدليل ولا يحصل إفحامهم، وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: {أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة الرعد:١٦]، وقوله: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ} [سورة لقمان:١١]، وقوله: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ} [سورة النحل:١٧]، وقوله: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [سورة النحل:٢٠]، وقوله: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [سورة الفرقان:٣]، وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين"[١٠].

الحافظ ابن القيم كما ترون يخالف ابن كثير فيما ذهب إليه، فابن كثير يقول: أإله مع الله يعبد؟!، لكنه لم يرجح هذا القول، والكلام الذي حذف في المختصر كان ينبغي ألا يحذف، فابن كثير ذكر القول الآخر أإله مع الله فعل هذا؟! قال: وهو يرجع إلى القول الأول بطريق الجمع بين القولين، والذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- يخالف القول الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- أإله مع الله يعبد؟!، فابن القيم يقول: أإله مع الله خلق هذا؟! فعل هذا؟! واحتج على هذا بأمرين:

الأمر الأول: أنهم يعبدون معه غيره، فهم لا ينكرون عبادة غير الله -عز وجل-، يعبدون معه الأصنام.

والأمر الثاني: أن الحجة لا تقوم عليهم بمثل هذا، إنما تقوم بأن يقولوا: لا، أإله مع الله فعل هذا؟! أإله مع الله خلق؟! فهم ينكرون أنه ما خلق ذلك أحدٌ سوى الله -تبارك وتعالى-، هم يقرون بهذا، إذا كان كذلك ألزمهم بتوحيد الإلهية، وهذا معنى قول أهل العلم: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية ويقتضيه، ويُحتج عليهم بتوحيد الربوبية الذي يقرون به على توحيد الإلهية، فهذا معنى كلام ابن القيم واحتج على هذين الأمرين، يقول: وكيف يقول لهم: أإله مع الله يعبد وهم يعبدون غيره؟ لكن يمكن أن يقال: الذي قال: يعبد لا يخفى عليه ما ذكره ابن القيم، وإنما يقصدون أإله مع الله يعبد أي يستحق العبادة، وهو الذي خلق هذه المخلوقات وأوجدها -تبارك وتعالى- مما يعجز عنه الخلق؟، فيكون القول الأول والثاني بهذا الاعتبار بينهما ملازمة على هذا الوجه، أإله مع الله أوجدها فيستحق العبادة؟، أو أإله مع الله يستحق العبادة، والله هو الذي خلقها وأوجدها؟، والآية تحتمل المعنيين، والواقع أنه ليس مع الله إله يستحق أن يعبد، وليس مع الله إله خلقها وأوجدها، والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [سورة النمل:٦١].

يقول: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة.

قوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} فعل هذا؟ -كما يقول ابن القيم- هو الذي اختاره ابن جرير، وابن كثير -رحمه الله- كما سمعتم أشار إلى الجمع بين القولين.

---

١٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٤١٢/١).

بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [سورة غافر: ٦٤].

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} "أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم"**، يعني: جعل لها رواسي، صارت قارة ثابتة يتقلب الخلق عليها ويسعون في مصالحهم، ويمشون في مناكبها ولا يحصل لهم فيها اضطراب، وإنما هي ساكنة هذا القدر، ولا إشكال فيه، لكن هل هذا ينفي ما يذكره المعاصرون أو كثير من المعاصرين من أن الأرض تتحرك يعني تدور، الذين منعوا من ذلك تمسكوا بأن الله يقول: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} فهي مستقرة فكيف يقال: إنها تتحرك وتدور؟، وبصرف النظر عمن قال: إنها تتحرك وتدور لا يقال: إنه مكذب ومناقض للقرآن؛ لأن حركة الجرم الكبير جداً في الأرض بهذا اللون من الحركة لا تظهر للناس ولا يشعرون بها، فهي بالنسبة إليهم قارة ثابتة لا يرون هذه الحركة ولا تؤثر فيهم، وهذا وجه الامتنان {جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا} بمعنى أنها لا تضطرب ولا تتحرك بهم حركة تؤثر على الخلق، فالزلزلة مثلاً اضطراب وحركة قوية في الأرض تؤثر غاية التأثير، كانت الأرض مضطربة تميد بالناس فهنا وجه الامتنان بجعلها قارة يعني لا تضطرب، ومن قال: إنها تتحرك وتدور، لا يقال: إنه مكذب القرآن ومناقض للقرآن؛ لأن الله قال: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا}، وحركة الجرم الكبير هذه الحركة الرتيبة لا يشعر بها الخلق، فالعامة مثلاً لا يشعرون أن الأرض تدور، لا يخطر في بالهم ذلك أصلاً؛ لأنهم لا يشعرون بهذه الحركة، فمن قال: إنها تتحرك، لا يقال: إنه مكذب بالقرآن فهو كافر؛ لأن الآية ليست صريحة في ذلك، بمعنى أن القرار المقصود أنها لا تميد بالناس لا تضطرب، لكن هي في العين تتحرك، وهذا كما قيل في قوله -تبارك وتعالى- في وصف الأرض بأن الله جعلها بساطا منبسطة، ونحن نعلم أن الأرض كروية، الله قال: {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} [سورة نوح:١٩]، فمن قال: إنها دائرية لا يكون مكذباً للقرآن؛ لأن هذا التكور في الجرم الكبير لا يبدو للناظرين، بل تبدو كأنها مسطحة، والواقع أنها كروية، والذي يكون تكذيباً للقرآن من يقول: إن الشمس ثابتة لا تتحرك، وإن الأرض هي التي تدور حول نفسها، تدور حول الأرض والشمس لا تتحرك، ومن دورة الشمس يحصل الليل والنهار، وليس من دوران الأرض كما يقوله أهل الفلك، والدليل على هذا أن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} [سورة يس:٣٨]، فالذي يقول: لا تتحرك هذا مناقض للقرآن، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في التعاقب والتتابع بين الشمس والقمر: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ} [سورة يس:٤٠]، لا يجوز بحال من الأحوال أن يقال في معناها: إنها تجري وإن القمر أيضاً يجري، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يقال ذلك، يحتاج الناس أن يعلموا بهذا، وأن الحقائق المذكورة في القرآن هي التي يجب الوقوف عندها وعدم الالتفات إلى ما خالفها لكن من القرآن ما يكون صريحاً، وأحياناً لا يحتمل معنى آخر مثل هذه {وَالشَّمْسُ تَجْرِي} فلا يجوز لأحد أن يقول: إنها ثابتة لا تتحرك، لكن في مسألة الانبساط والأرض كروية فهذا لا يناقض القرآن، وكروية الأرض ذكرها العلماء قديماً، وذكرها شيخ الإسلام على أنها قضية مسلمة، قضية معروفة لكن التكور في الجرم الكبير لا يظهر للناظر، والله تعالى أعلم.

{وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا} أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، سَيَّرَ لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

تذكرون الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- في مناسبة سابقة لما تكلم على هذه الآية ذكر جعْل الأنهار في الأرض فقال: الله يسوق المطر إلى الأرض فتنبت، ومن الأرض ما يكون سباخاً إذا جاءه المطر فإن ذلك لا ينفعه، ولا يحصل به الإنبات، وإنما يأتيه الماء من أماكن أخرى فيحصل بذلك نفع الناس، ومثل على هذا بأرض مصر، الأرض التي لا تنتفع بالمطر تأتيها الأنهار.

{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} أي: جبالا شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم.

قوله تعالى: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}، و{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} تثبت لا تضطرب، يعني الذين يقولون: إن الأرض تتحرك يحتمل أن ذلك لا يناقض القرآن مناقضة صريحة، لأن المعنى لا تضطرب بالناس {وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ} تثبتها من الاضطراب والزلزلة.

{وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [سورة الفرقان:٥٣].

ابن كثير -رحمه الله- يقول عن الحاجز: **مانع يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا،** فبعضهم يقول: الحاجز من اليابسة، فالأنهار تجري في شقوق الأرض لا تختلط بالبحار إلا في مصباتها، فتبقى في هذه الشقوق عذبة حلوة، وبعض أهل العلم يقول: المقصود بالحاجز أنها لا تختلط، لا يطغى هذا على هذا، فحينما تصب الأنهار في البحار فإن ذلك لا يُحول البحار إلى مياه عذبة على طول الزمان وكثرة ما يصب فيها من الأنهار في العالم، وكذلك البحار لا تطغى على الأنهار فتمازج مياهها فتتحول مياه الأنهار؛ لأنها صغيرة بالنسبة للبحار، لا يطغى عليها البحر فيمزجها فتتحول مياه الأنهار إلى مياه ملح، وجعل بينهما حاجزاً هذا لا إشكال فيه، والمعنى ظاهر، وما يقال زيادة على ذلك من التفصيلات قد لا يناقض ما قاله السلف أعني ما يذكره أصحاب الإعجاز العلمي فهذا من الأمثلة التي يمكن أن يقبل فيها ما يقولون: فحينما يقولون مثلاً: جعل بينهما حاجزاً: جعل مكان الملتقى هذا المكان الذي يُلتقي فيه، يصب فيه النهر للبحر، هذه المنطقة تبقى منطقة لها خصائص معينة، وتعيش فيها كائنات معينة، وذاك بحر، هذا هو الحاجز، أو ما يقولونه من أن المياه الحلوة العذبة حينما تصب في البحار تبقى وتحافظ على خصائصها، وأن العيون التي في البحار لها مساراتها، وأنها لا تمتزج بماء البحر -على أنها تتحول إلى ملح- وإنما تبقى حلوة، فإن صح ذلك فهذا من جملة التفصيل الذي يذكر في الآية، وهكذا ما يذكرونه، وجعل بين البحرين حاجزا: يقولون: بين البحر والبحر وليس البحر والنهر، يقولون: البحر والبحر الملتقى بينهما يكون له خصائصه، هذه المنطقة تعيش فيها

كائنات غير الكائنات التي تعيش هنا وهنا، ونسبة الملوحة فيها تختلف عن هذا البحر، وهذا البحر، فهذا حاجز بين البحرين، ونحن نعرف أن البحار تختلف في خصائصها والكائنات التي تعيش فيها، يعني: في نسب الملوحة، والنباتات التي تكون فيها، والكائنات التي تعيش فيها، يعني انظر إلى الخليج العربي هو من أكثر مياه البحر في العالم ملوحة وهذا معروف شديد الملوحة، وتجد أن لونه كدر إلى حد ما يعني ليس بذلك الصفاء لربما لكثافة ملوحته، لكن إذا ذهبت إلى البحار الكبيرة كالمحيطات تجد أن الملوحة أقل بكثير، وتجد أن الماء في غاية الصفاء، حتى البحر الأحمر فيه ملوحة وترى صفاء الأرض، وما لا تراه في هذا البحر تراه في البحار الأخرى والمحيطات، وحينما تسبح في هذا المحيط تسبح ولا تحتاج أن تغمض عينيك، فإذا أصاب العين شيء من الماء في البحار الصغيرة فإن ذلك يشق على الإنسان، وهناك في المحيطات لا يحدث شيء من ذلك، كأنك تسبح في نهر لا يؤذي العين إطلاقاً، ولا تشعر بشدة الملوحة في مياه المحيطات فهذا له خصائص وهذا له خصائص، هو بحر لكن مع طول هذه المدة من الالتقاء لن تمتزج هذه البحار بحيث تكون وحدة ذات خصائص متحدة، ولذلك حتى الكائنات التي تعيش هنا غير الكائنات التي تعيش هناك، فبعض الأسماك توجد في البحر المتوسط، ولا توجد في الخليج العربي أو البحر الأحمر والعكس، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعلَ هذا؟ أو يعبد؟ على القول الأول والآخر، وكلاهما متلازم صحيح، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} أي: في عبادتهم غيره.

قوله تعالى: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعل هذا؟، أو يعبد؟، وعلى القول الأول والآخر كلاهما متلازم صحيح، جمعَ بين القولين.

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة النمل:٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعُوّ عند الشدائد، المرجُوّ عند النوازل، كما قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ} [سورة الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [سورة النحل:٥٣]، وهكذا قال هاهنا: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} أي: مَنْ هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه؟.

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} المضطر هو المجهود المكروب الذي لا حول له ولا قوة، قد انقطعت به الأسباب؛ ولهذا يذكر أهل العلم في سبب إجابة الله -عز وجل- دعوة المضطر يقولون: لما انقطعت به العلائق والأسباب فإنه يخلص في هذه الحال الدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال الله -جل جلاله-: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة العنكبوت:٦٥] فإذا انقطعت علائقه وحّد وجهته إلى ربه وخالقه -جل جلاله-، فعندئذ يجيبه الله حينما لا يبقى في القلب أي التفات إلى المخلوقين، أو ما يعبد من دون الله -تبارك وتعالى-، وقوله: {وَيَكْشِفُ السُّوءَ} كل ما يسوء العبد، وبعضهم يقول: هو الضر، يكشف السوء: يكشف الضر من مرض ونحوه، والمعنى أعم من ذلك، يكشف السوء: كل ما يسوء الناس، ويدخل فيه الضر والمرض.

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجيم قال: "قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: "أدعو إلى الله وحده، الذي إن مَسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضْلَلْت بأرض قَفْر فدعوتَه رَدّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَة فدعوتَه أنبتَ لك"، قال: قلت: أوصني، قال: "لا تَسُبَّنَّ أحدًا، ولا تَزْهَدَنّ في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تُفرغَ من دَلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله -تبارك تعالى- لا يحب المخيلة"[١١].

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت: هزم الكفار يوما المسلمين في غزاة، فوقف جَوَاد جَيّد بصاحبه، وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: ما لك؟ ويلك، إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم، فقال له الجواد: وما لي لا أقصّر وأنت تَكلُ علوفتي إلى السُّواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك عليَّ عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حِجْري. فجرى الجواد عند ذلك، ونجَّى صاحبه، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حِجْره، واشتهر أمره بين الناس، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك، وبلغ ملك الروم أمرُه، فقال: ما تُضَام بلدة يكون هذا الرجل فيها.

ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، يقول يعني لا تغلب ولا تقهر بلدة يكون هذا الرجل فيها، يقول: لا سبيل لنا عليهم ما دام مثل هذا فيهم، فأراد أن يأخذه ويأسره ليسلط عليهم.

واحتال ليحصّله في بلده، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته في الإسلام وقومه.

هذا مأسور وارتد فأرسله ملك الروم، واحتال على هذا الرجل وجعله يأتي ليؤسر، يعني يتلطف به، وأخرجه معه إلى البلد حتى يمكن أسره.

حتى استوثق، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال: اللهم، إنه إنما خَدَعني بك فاكفنيهما بما شئت، قال: فخرج سبعان إليهما فأخذاهما، ورجع الرجل سالما.

هذه واقعة {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة البقرة:٢٠] قد يحصل هذا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن تكلم الذئب حينما قال للرجل الذي استنقذ منه الشاة: أتمنعني رزقاً ساقه الله إليَّ[١٢]؟، وقال: ((بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث))[١٣] فالله -تبارك وتعالى- قادر، لكن مثل هذه الواقعة التي ذكرها ابن عساكر عن هذه المرأة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية يعني نحن ننظر إلى هذا كأنه من أخبار بني إسرائيل، يعني لا نصدق مثل هذا ولا نبادر إلى تكذيبه؛ لأنه غير ممتنع.

---

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٦٣٦)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

١٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١١٧٩٢)، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح، القاسم بن الفضل الحداني، وأبو نضرة: وهو المنذر بن مالك العبدي، يزيد: هو ابن هارون، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٢).

١٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف:٩]، برقم (٣٢٨٤).

وقوله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أي: يُخْلِفُ قَرنا لقرن قبلهم، وخَلَفًا لسلف، كما قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام:١٣٣]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [سورة الأنعام:١٦٥]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠]، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضا، كما قدمنا تقريره.

يعني: يخلف بعضهم بعضاً سواء قيل: إن الأمم يخلف بعضها بعضاً، أو إن الأجيال يخلف بعضها بعضاً، فالأولاد يخلفون الآباء، وهذا المعنى هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوماً يخلف بعضهم بعضاً، ولا يقال: إنهم خلفاء عن الله -عز وجل-، هذا وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه غير صحيح، والله أجل وأعظم من أن يخلفه أحد من خلقه، والكلام في هذه المسألة تجدونه في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة:٣٠]، ولا يقال: هو خليفة عن الله، و لا يقال: الإنسان خليفة الله بأرضه، كما يقال، الأقرب أن ذلك غير مراد، وأنه لا يسوغ أن يقال: الإنسان خليفة الله في أرضه، وإنما خليفة: أن يخلف بعضه بعضاً، وبعض أهل العلم في آية البقرة خاصة يقول: صاروا خلفاء من الجن، فإن الجن كانوا قبل الإنس في الأرض فأفسدوا فيها؛ ولهذا قالت الملائكة لما أخبرهم الله -عز وجل- عن هذا الاستخلاف: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء} قاسوا ذلك على الجن، وليس بلازم، فقد يكون الله -عز وجل- أطلع الملائكة على حال آدم وما ركب فيه من الشهوات مما يقتضي وقوع هذا الفساد من سفك الدماء وما إلى ذلك، لكن ليس المقصود أنهم خلفاء عن الله، فالإنسان ليس بخليفة عن الله -جل جلاله.

وهكذا هذه الآية: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أي: أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وقومًا بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضَهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقَهم من نفس واحدة، ثم يكثرَهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قرونا بعد قرون، وأمما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البَرية، كما قدر ذلك -تبارك وتعالى-، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدًّا، ثم يقيم القيامة، ويُوفي كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: يقدر على ذلك؟، أو أإله مع الله بعد هذا يُعْبدظ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك {قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ} أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

هنا في المعنى الذي ذكره في قوله: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} كلام ابن كثير -رحمه الله- يشرح هذه الآية وهي من دلائل قدرة الله -جل جلاله-: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} أجيال وهكذا، يعني بهذه الطريقة لو شاء الله -عز وجل- جعل الناس جميعاً، أوجدهم مرة واحدة كما خلق آدم ويموتون في وقت واحد فتضيق بهم الأرض، فلو كل الناس من أولهم إلى آخرهم وُجدوا وخُلقوا كما خُلق آدم، ويموتون في وقت واحد فإن الأرض تضيق بهم، ولكن من حكمته -تبارك وتعالى- أن جعلهم خلفاء الأرض، فهذا الجيل يُفنى الآباء ويُولِد

الأبناء، يَفنى أناس فلا تشعر بفراغ بعد موت الآباء؛ لأنه وجد الأبناء، ثم يتحول هؤلاء الأبناء إلى آباء ثم يكونون كالزرع الذي آن حصاده فيتحولون إلى أجداد، ثم بعد ذلك يبدءون بالفناء، ومن الناس من يتوفى قبل ذلك، ويوجد ويولد في نفس الوقت، يولد أناس ويموت أناس، هكذا الأجيال تتعاقب، فلا يُشعر بموتهم من جهة الكثرة أو القلة ولا يُشعر أيضاً بالمواليد من جهة الكثرة، فإذا قيل: إنه ولد مثلاً مليون إنسان في هذا اليوم لا ترى زحاماً في الطرقات، وإذا قيل: مات مليون إنسان في العالم في هذا اليوم لا ترى فراغاً، لكن ذلك يأتي بالتدريج بهذه الطريقة، يعني لو قدر لنا أن نضع ذلك بألوان ونحو هذا تجد رأس هذا الجيل باللون الأصفر، ووسطه باللون الأحمر، أوله الطرف الأسفل بلون آخر أخضر يعني هؤلاء جيل جديد ثم بعد ذلك يزهو ويكتمل، ثم بعد ذلك يصفر، ثم ينقضي ثم يتلاشى، وهكذا ينبت الجيل الجديد ويتحول إلى آباء، ويأتي جيل بعدهم وجيل بعدهم، ويتعاقب الناس بهذه الطريقة، فالجيل الذين قبلنا ماتوا، ولو أنهم ماتوا جميعاً في يوم واحد لعُد ذلك فناء عاماً للناس، ولكن الناس يفنون، كل جيل يفنى لكن اليوم واحد، وغداً آخر وبعده آخر وهكذا الجيل الجديد ما يوجد دفعة واحدة، وإنما اليوم واحد وغداً آخر وبعده شيئاً فشيئاً ثم يحصل هذا التعاقب وتصرف الأموال فيهم والثروات تنتقل من جيل إلى آخر، ويرثون الأرض، فهذه الأرض التي نحن فيها وجد فيها أجيال قبلنا لكنهم انقضوا، وماتوا وثرواتهم انتقلت إلى الذين بعدهمن هذه آية من آيات الله -تبارك وتعالى- في هذا الخلق.

{أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة النمل:٦٣].

يقول تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل:١٦]، **وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} الآية** [سورة الأنعام:٩٧].

{أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، والظلمات هنا تحتمل معنيين: تحتمل أن يكون المقصود بها ظلمات الليل، فيكون المعنى أمن يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتم في البر والبحر؟، **{فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** يعني ما الذي يرشدكم في الظلام حال السفر؟، فجعل لهم من الآلات ما يرشدهم كما قال الله -عز وجل-: **{وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}** [سورة النحل:١٦]، فعلامات **{وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}** يعرفون ذلك بالنهار بعلامات كالجبال ونحو ذلك، ويهتدون ليلاً بالنجوم، ويحتمل أن يكون المقصود بالظلمات ليس الظلام، وإنما المفاوز التي لا أعلام فيها ولجج البحار، فشبهها بالظلمات باعتبار أنهم لا يجدون فيها ما يرشدهم، يعني يمشي في أرض ليس فيها أي علامات يعرفها، ويهتدي بها إلى وجهته، وإذا دخل في لجج البحر فإنه لا يجد علامات تهديه إلى مراده، فذلك ظلمات بهذا الاعتبار، يعني أن الأمر يكون مبهما بالنسبة إليه، لا يظهر له وجه اهتداء، فجعل الله -عز وجل- لهم من العلامات بالنجوم ونحوها ما يهتدون به إذا دخلوا البحر، فالذي جعل لهم علامات يهتدون بها ويصلون بها إلى مطلوبهم الله -تبارك وتعالى-، وإذا نظرت إلى أخبار العرب في مثل هذا وجدت العجب، وبعضهم يستطيع أن يصف كل شيء بالنجوم -وهذا موجود إلى اليوم-، يعرفون أين يقع المكان الفلاني، وأين تسكن القبيلة الفلانية، فالله -تبارك

وتعالى- جعل لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر، فهنا قال: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، كقوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [سورة الأنعام:٩٧]، وإلا فإذا دخل البحر لا توجد فيه أي علامات عدا النجوم، فيهتدي بها.

{وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يُغيث به عباده المجدبين الأذلّين القنطين، {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

الرياح تكون مبشرة بالمطر، مبشرة له، وهي الريح التي تكون قبله مبعثرة فينزل المطر بعدها، وهذا مشاهد، بُشراً: كما أنها أيضاً تكون ناشرة للسحاب فهي نُشر، تنشر السحاب وتلقحه وتسوقه.

{أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة النمل:٦٤].

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [سورة البروج:١٢-١٣]، وقال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم: ٢٧].

**{وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [سورة الطارق:١١-١٢]، وقال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سورة الحديد:٤]، فهو -تبارك وتعالى-، يُنزل من السماء ماء مباركًا فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى} [سورة طه:٥٤]؛ ولهذا قال: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} أي: فعَلَ هذا؟، وعلى القول الآخر: بعد هذا يُعبد؟ {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة المؤمنون:١١٧].

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٦٥ إلى الآية ٨٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [سورة النمل:٦٥-٦٦].

يقول تعالى آمرًا رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول معلمًا لجميع الخلق: إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب، وقوله: {إِلا اللَّهُ} استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله -عز وجل-، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ} الآية [سورة الأنعام:٥٩]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزلُ الْغَيْثَ...} [سورة لقمان:٣٤] إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً} [سورة الأعراف:١٨٧]، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقوله: {بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها.

وقرأ آخرون: "بل ادَّارَكَ علمُهم"، أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لجبريل -وقد سأله عن وقت الساعة-: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[1]، أي: تساوى في العجز عن دَرْك ذلك علم المسئول والسائل.

وقوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} [سورة الكهف:٤٨] **أي: الكافرون منكم، وهكذا قال هاهنا: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} أي: شاكُّون في وجودها ووقوعها، {بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} أي: في عمَاية وجهل كبير في أمرها وشأنها.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، برقم (٨).

فقوله تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في الآية قراءتين وهما قراءتان متواترتان الأولى {بل أدرك}، والثانية {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ}، وحمل الأولى {أدرك} قال: **أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها**، و{أدرك} بمعنى انتهى باعتبار أن الشيء إذا أدرك يكون قد بلغ منتهاه تقول: أدرك الثمر بمعنى أنه بلغ منتهاه فليس له بعد ذلك إلا الزوال والاضمحلال، يعني لا يُنتظر فيه كمال بعد ذلك، بلغ المنتهى، فهنا قال: أدرك أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها هذا وجهه، لما ذكر القراءة الأخرى {ادَّارَكَ} قال: **أي تساوى علمهم في ذلك**، {ادَّارَكَ} يعني تدارك فصاروا متساوين في علمها، بمعنى أنه لا يحيط أحد بعلمها أو لا يعلم متى وقوع الساعة إلا الله -تبارك وتعالى-، هذا معنى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، والآية فيها كلام كثير لأهل العلم، بل ذكر فيها بعضهم اثنتي عشرة قراءة، ولكن المتواتر منها قراءتان، وهو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ومن أراد الوقوف على هذه القراءات فلينظر في مثل كتاب "البحر المحيط" لأبي حيان -رحمه الله- قد ذكرها وأطال الكلام عليها، كما تكلم عليها بكلام جيد مفصل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في "أضواء البيان"، وخلاصة ما ذكره أهل العلم في تفسيرها {بَلِ ادَّارَكَ} فالجمهور يقولون: أصله تدارك، وبعضهم يقول: تكامل علمهم في الآخرة، وهذا المعنى من أدرك الثمر، إذا نضج واكتمل وبلغ الغاية، عكس ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- وهؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث ليس عندهم هذا العلم الكامل في الآخرة، لكن هؤلاء حملوه على أن ذلك واقع في الآخرة، {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، فـ"في" ظرفية يعني في الآخرة يحصل لهم كمال العلم لما عاينوا من الحقائق {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢] فتنكشف عنهم الحجب، ويعرفون حقية ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فتزول عنهم الأوهام والشكوك والتكذيب، والآخرة كما هو معلوم إذا رأوها عندئذ يقرون، ويتمنون أنهم لو اتبعوا الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فهنا يقولون: يعني اكتمل، يعني في الآخرة يكتمل، ويحصل لهم كمال العلم، فهؤلاء جعلوه في الآخرة يعني في اليوم الآخر يحصل لهم الكمال لما يعاينون لكن من جعل ذلك متعلقاً -يعني متعلق العلم- بقضية الآخرة، {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} فبعضهم يقول: {بَلِ ادَّارَكَ} أي ضعف كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي فهذا يكون محمولاً على الدنيا {عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} فيكون متعلق العلم القضية التي يرتبط بها علمهم من حيث الكمال والضعف والقوة إلى آخره هي قضية الآخرة التي يجادلون فيها، ويستبعدون وقوعها، فإذا قلنا: إن هذا في الدنيا على ضعف العلم، وهكذا قول من قال ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمله أيضاً على أن ذلك في الدنيا، {بَلِ ادَّارَكَ} قال تتابع هذا الشيء متدارِك أو متدارك فيه، تتابع متتابع علمهم في الآخرة هل هي واقعة أو غير واقعة، {ادَّارَكَ} أي: تتابع علمهم في شأن الآخرة من حيث الوقوع وعدمه، وهكذا القول الذي وجهت به كلام ابن كثير -رحمه الله-، قال في الأول {أدرك علمهم في الآخرة} **انتهى وعجز**، فبعضهم يقول: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} أي: انتهى وتلاشى واضمحل فلا علم لهم بها، فهذا في الدنيا إنما هي ظنون كاذبة، يقولون: تقول: أدرك الثمر يعني صار إلى حال يكون بعدها الاضمحلال، يكون إلى الجذاذ أو القطاف فلا يرجى له بعد ذلك كمال، وابن عاشور -رحمه الله- يذكر أن المفسرين تحيروا في هذا الموضع، وتقابلت فيه أقوالهم ثم حاول أن يستخرج خلاصة ما ذكروه أو ما تحتمله الآية فذكر ثلاثة احتمالات:

الأول: وهو الذي اختاره أن التدارك هو أنّ علم بعضهم لحق علم بعض في أمر الآخرة، وما المراد، يقول: هذا يحتمل يعني علم بعض هؤلاء أدرك علم بعض، يقول: فيحتمل أنها تداركت علوم الحاضرين مع أسلافهم، يعني تلاحقت فتلقى الخلف عن السلف علمهم بالآخرة بلا بصيرة {ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} أدرك المتأخرون علم المتقدمين في الآخرة وعلم المتقدمين منهم إنما هو ظنون وأقوال كاذبة لم تُبنَ على علم ولم تُتلقَّ من الوحي، وإنما هي أوهام وتخرصات يتلقاها الخلف عن السلف بلا بصيرة، {ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، أدرك المتأخرين علم الأولين، وصلهم علم الأولين فتلقفوه من غير تبين، وتبصر هم يتلقفون هذه الجهالات {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، صاروا يقلدون الآباء، ويتلقفون مقالتهم دون تمحيص، وإنما مبنى ذلك كله الجهل، {ادَّارَكَ} وأدرك، ويحتمل معنى آخر ذكره، وهو أن ذلك يرجع إلى معنى الاختلاط والتضارب والتداخل والتناقض، فهم ينكرونها كما جاء في كثير من المواضع في كتاب الله –عز وجل-: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [سورة ق:٣] إلى غير ذلك من الآيات، وفي الوقت نفسه يعبدون الأصنام، ويقولون: {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس:١٨]، إذاً هم ينكرون وقوع الآخرة، ثم في الوقت نفسه يعبدون الأصنام؛ لتكون شافعة لهم عند الله –عز وجل-، وأنتم لا تؤمنون بالآخرة، ولا تحتاجون هذه الشفاعة، يعني فقالوا: {بَلِ ادَّارَكَ} أي: اضطرب وتداخل وتناقض، ويحتمل أن ذلك مبالغة من الإدراك بمعنى النضج والكمال يعني أن يكون ذلك واقعاً في الآخرة، فتكون الفاء للظرفية ادارك في الآخرة، تكامل في الآخرة، هذا على قراءة {ادَّارَكَ}، أما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو {أدرك} فحمله بعض أهل العلم على الكمال، حال المعاينة في اليوم الآخر {أدرك} بمعنى بلغ، كما تقول: أدركته إذا بلغته يعني أنهم وصلوا إلى حقيقة علم الآخرة على أكمل الوجوه وأتمها، لكن لما فات الأوان، ولا ينفعهم الإيمان عند ذلك، وبعضهم يقول: هذا بمعنى الإنكار لأنه قال بعده: {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ}، وهذا قال به: الزجاج، وذكره ابن عطية يعني أنه ينكر عليهم، لا يقرر هذا، لا يخبر عنهم، وإنما يقول: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} على سبيل الإنكار يعني أن علمهم لم يدرك، لم يبلغ، لم يحصل لهم بها معرفة، {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} وابن جرير جعلها أيضاً من الاستفهام على هذه القراءة {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ} أي هل ادارك علمهم في الآخرة؟، وبعضهم يقول: حتى هذه القراءة {بَلِ ادَّارَكَ} أي ضل واضمحل وزال وتلاشى أخذاً من معنى الإدراك الذي ذكرته، وهذا الذي يميل إليه ابن عاشور -رحمه الله- {ادَّارَكَ} بمعنى فني، وزال واضمحل علمهم في الآخرة، أدركت الثمر إذا انتهى نضجها.

والخلاصة: أن القراءتين المتواترتين {ادارك} و{أدرك}، وأن العلماء رحمهم الله مختلفون هل ذلك واقع في الآخرة؟ فهو محمول على الكمال، {ادَّارَكَ} بمعنى اكتمل، وهنا يقال: اضطرب أو ضعف أو تلاشى، وقريب منه قول من قال: أي تتابع ولحق يعني علم الأولين بعلم الآخرين، الأولون يصدرون عن أقوال متكاذبة مبناها على الخرص والتخمين فآل ذلك إلى الآخرين فصاروا يقولون بقولهم: ويتلقفون هذا الاعتقاد الفاسد في الآخرة، ويقولون: أدركنا عليه الآباء والأجداد، يعني هذه خلاصة هذه الأقوال، والكلام فيها كثير جداً لكن حاولت أن أقربها قدر المستطاع، وارجوا أن يكون المعنى قد قرب أو كاد.

في قوله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمونَ} قال: أي في عماية، وجهل كبير في أمرها وشأنها، {عَمونَ} جمع، عَمِيَ يَعْمَى والوصف منه عَمٍ، والجمع عمون، وتقول: هو أعمى وعمٍ كما يقول زهير:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبلَه *** ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ

يعني: أعمى {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمونَ}.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النمل:٦٧-٧٠].

يقول تعالى مخبرًا عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا، ثم قال: {لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعًا.

وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، {إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} أي: أخذه قوم عَمَّن قبلهم، مَنْ قبلهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة.

قال الله تعالى مجيبًا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء: {سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} أي: المكذِّبين بالرسل وما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقَمُ الله وعذابه ونكاله، ونجَّى الله من بينهم رسله الكرام وَمَنْ اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

ثم قال تعالى مسليًا لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} أي: في كيدك ورَدّ ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهرٌ دينك على مَنْ خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

الله -تبارك وتعالى- قال بعدما ذكر علمهم في الآخرة {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} فالذين قالوا: تتابَعَ أي تلاحق علمهم في "ادارك" يقولون: الله -تبارك وتعالى- يصف حالهم أنهم ليس لهم علم في الآخرة، ولا إيمان صحيح، وأنهم تلقوا التكذيب من آبائهم، والذين يقولون: استوى علمهم بمعنى أنه لا علم للخلائق بالآخرة -بمعنى وقت الوقوع- نظروا إلى ما قبلها {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} يعني استوى علمهم بالآخرة، ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) فتجد أن أهل العلم من يرجح بقرينة من الآيات قبلها، وبعضهم قد يرجح بقرينة بعدها، والآية تحتمل هذا وهذا -والله تعالى أعلم- والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة النمل:٧١-٧٥]

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} قال الله مجيبًا لهم: {قُلْ} يا محمد {عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، قال ابن عباس: أن يكون قرب -أو: أن يقرب- لكم بعض الذي تستعجلون، وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخرساني، وقتادة، والسدي.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} [سورة الإسراء:٥١]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٥٤].

وإنما دخلت "اللام" في قوله: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ لأنه ضُمن معنى "عَجِل لكم" كما قال مجاهد في رواية عنه: {عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ}: عجل لكم.

ثم قال الله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} أي: في إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك، إلا القليل منهم، {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ} [سورة الرعد:١٠]، {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [سورة طه:٧]، {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [سورة هود:٥].

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة -وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه- فقال: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} قال ابن عباس: يعني: وما من شيء {فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} وهذا كقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحج:٧٠].

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، فـ{عَسَى} من الله واجبة، بمعنى أنها تأتي بمعنى الترجي، ولكن ذلك يكون ممن لا يعلم عواقب الأمور، فإذا صدر ذلك عن الله -جل جلاله- فهو يعلم ما كان وما يكون، ولهذا قال من قال من السلف -رضي الله تعالى عنهم-: إنّ "عسى" من الله واجبة، يعني متحققة ليست للترجي، ومعلوم أن الخطاب قد يصدر مراعاة لحال المخاطب، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، يعني بحسب رجائكما كما يقول بعض المفسرين، وهذا وجه، {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم} [سورة الممتحنة:٧] يقال فيها كما هنا: إن ذلك متحقق الوقوع، وقد كان، فأسلم من أسلم منهم.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **قال ابن عباس: أن يكون قرب**، بمعنى قرب؛ ولهذا في قراءة غير متواترة لابن عباس -رضي الله عنهما- {عسى أن يكون أزف لكم}، وأزف بمعنى قرب، والقراءة الأحادية تفسر المتواترة، يقول: **وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء** إلى آخره، قال: **وهذا هو المراد بقوله تعالى**: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}، يقول: **وإنما دخلت "اللام" في قوله**: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ **لأنه ضُمن معنى "عَجِل لكم"**، وعلى هذا الاعتبار -القول بالتضمين- لا تكون اللام زائدة، تقول: ردفه و أردفه إذا ركب خلفه، والله -تبارك وتعالى- يقول: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال:٩] يعني يردف بعضهم بعضا، أي أنهم يُتبعون على قول جماعة من المفسرين بما ذكر في الوعد الآخر الثلاثة الآلاف والخمسة بشرطه، فالشاهد هنا {ردف}

تقول: ردفه وأردفه إذا ركب خلفه، {رَدِفَ لَكُمْ} قالوا هنا بمعنى تبِعكم ولحِقكم، {بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}، واللام زائدة للتوكيد، المعنى {رَدِفَ لَكُمْ} أي لحقكم وتبعكم يعني ردفكم بعض الذي تستعجلون، والذين قالوا بالتضمين والمراد به: أن يضمن الفعل معنى فعل آخر يعدى بتعديته فيكون ذلك أبلغ في المعنى، بمعنى أنهم ينظرون إلى الفعل الموجود، فيقولون: إنه عدي بالحرف الفلاني وهذا الفعل إنما يتعدى بنفسه لا يحتاج إلى حرف، فبعضهم يقول: هذا الحرف زائد وأحياناً قد يعدى بحرف آخر ليس بهذا الحرف، فيقولون: هذا الحرف بمعنى الحرف الآخر، وهذه طريقة الكوفيين، وتضمين الفعل معنى الفعل طريقة البصريين فيبحثون عن فعل يصلح أن يعدى بهذا الحرف، فيقولون: إن هذا الفعل مضمن فعلاً آخر يصح أن يعدى، مثل: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [سورة الإنسان:٦] {يَشْرَبُ بِهَا} ويشرب، يقولون: بمن "يشرب منها"؛ لأن العين لا يشرب بها، وإنما يشرب منها، فالكوفيون يقولون: إن الباء مضمنة معنى حرف آخر وهو مِن، وإن حروف الجر تتناوب، وطريقة البصريين يقولون: الفعل مضمن معنى فعل آخر، فيشرب مضمن معنى فعل آخر يصلح أن يعدى بالباء وهو يرتوي بها، فقالوا: هذا أبلغ في المعنى فدل على الشرب إضافة إلى الارتواء، لكن إذا قلنا: إن ردف كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **قال ابن عباس: أن يكون قرب** إلى آخره، قال: **وإنما دخلت "اللام" في قوله: {رَدِفَ لَكُمْ}؛ لأنه ضُمن معنى "عَجِل"**، فعجل يعدى باللام، عجل لكم، فيكون بهذا الاعتبار قد دل على معنى لحق وتبع إضافة إلى عجل، وبعضهم فسر {رَدِفَ لَكُمْ}، قال: أي اقترب لكم، وبهذا الاعتبار لا تكون اللام زائدة، وهكذا قول من قال: {رَدِفَ لَكُمْ} أي دنا لكم، كما يقول الفراء، فدنا تعدى باللام، والمعنى قريب، يعني دنا واقترب وأزف كما يقول ابن جرير -رحمه الله.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ} **قال ابن عباس: يعني: وما من شيء في السماء والأرض إلا في كتاب مبين**، هذا القول يشمل ما قاله السلف -رضي الله عنهم-: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ} يعني ما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا في كتاب مبين، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، وكونه {مُّبِينٍ} يعني مبين لمن نظر فيه وقرأ، مبين، كقوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} [سورة الحج:٧٠]، فهذا من أحسن ما تفسر به الآية، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن الذي لا يشك في صحته، أعني في المفردة المعينة، وتفسير القرآن بالقرآن يتفاوت فأحياناً قد يعمد المفسر إلى شيء من هذا فيخطئ، قد يكون محتملاً، وقد يكون في غاية الظهور كهذا.

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} [سورة النمل:٧٦-٨١].

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: إنه يقص على بني إسرائيل -وهم حملة التوراة والإنجيل- {أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله

وأنبيائه ورسله الكرام -عليه أفضل الصلاة والسلام-، كما قال تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} [سورة مريم:٣٤].

وقوله: {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} **أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليات.**

يعني في العمليات لم يكن عليهم من الآصار التي كانت على بني إسرائيل يعني التكاليف الثقال الشديدة الصعبة، فهو رحمة في هذا كله، رحمة في العمليات، وهو رحمة في غير الأمور العملية حيث بين لهم الحقائق التي تتحير فيها ألباب الذين لم يهتدوا بالوحي، ولم يستنيروا به، فهذا القرآن يجيب على الأسئلة التي تلح على الإنسان من أين جاء؟ لماذا جاء؟ إلى أين ينتهي؟ والحكمة من خلق هذه الحياة الدنيا، وما يجري فيها من الأحوال من ارتفاع وضعة، وتحول من حال إلى حال إلى غير ذلك، كل هذا يأتي مفسراً في القرآن فهو رحمة يبين لهم كل ما يحتاجون إليه من الأمور العلمية و العملية.

ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ} **أي: يوم القيامة،** {بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ} **في انتقامه،** {الْعَلِيمُ} **بأفعال عباده وأقوالهم.**

{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} **أي: في أمورك، وبَلِّغ رسالة ربك،** {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} **أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك مَنْ خالفك، ممَّنْ كتبت عليه الشقاوة وحقَّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا قال:** {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} **أي: لا تسمعهم شيئًا ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وَقْر الكفر؛ ولهذا قال:** {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} **أي: إنما يستجيب لك مَنْ هو سميع بصير، السمع والبصر النافعُ في القلب والبصيرة، الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل -عليهم السلام.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، ذكره بعد قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} هذا فيه عبرة كبيره نحتاج إليها دائماً لاسيما مثل هذه الأوقات التي يستطيل فيها أعداء الله –عز وجل- من الكافرين والمنافقين، وتظهر قرون النفاق ويحصل بسبب ذلك فتنة لمن شاء الله –عز وجل- فتنته، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يتولى الحكم والفصل بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، فيجازي كلًّا بعمله، وليس ذلك إلينا، وإنما علينا أن نبين حقائق الدين، وأن نتمسك به، ونسلك صراط الله المستقيم من غير تردد ولا وجل متوكلين في ذلك كله على الله، وإذا كان السالك يثق بالطريق التي سلكها أنه على الحق المبين حصل له بذلك الثبات، يعرف الطريق ويحصل له التوكل، فإذا لم يحصل له التوكل ضعف، وكثرت مخاوفه، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} [سورة آل عمران:١٧٥] يعني يخوفكم من أوليائه، يعظمهم في نفوسكم فتهابونهم وتخافونهم فمن لم يحصل له التوكل لربما حصل له التراجع والتنازل عن الحق الذي آمن به، وإذا لم يحصل له كمال اليقين فإنه يكون قابلا للتشكيك فيحصل له اضطراب ويحصل له تحير وتساؤلات في نفسه هل هو على حق أو لا؟، وهذا يوجد عند بعض الذين لا بصر لهم، ويسمعون مثل هذه الشبهات، ومثل هذه الفِراء والأقاويل الكاذبة والطعون في أهل الإيمان وأئمتهم من الأحياء والأموات، والتشكيك في الثوابت، فيبدأ بعض الناس يتحير

ويتردد {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} الحافظ ابن القيم له كلام قصير في هذا، فقال -رحمه الله تعالى-: " قال تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}، وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به فالدين كله في هذين المقامين"[٢]، وقال -رحمه الله-: " فأمر سبحانه بالتوكل عليه وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدعٍ لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق وهو ولي الحق، وناصره ومؤيده وكافٍ من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه وكيف يخاف وهو على الحق"[٣] انتهى.

وهذا كقوله -تبارك تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:١-٣]، نهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ثم أمره باتباع ما يوحي إليه، وفي هذه الحال سيصوبون إليه سهامهم قال: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: لا تسمعهم شيئا ينفعهم، إذ الموتى حقيقة من فارقت روحهم جسدهم، وهذا الذي قال به شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن الموتى الأموات لا يسمعون، وهذه يحتج بها جمع من أهل العلم على مسألة سماع الأموات، والآية تحتمل هذا المعنى، وتحتمل معنى آخر أن المقصود بالموتى موتى القلوب، بدليل أنه قال بعده {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}، ثم قال: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} فقابل هذا بهذا {لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} يعني موتى القلب، إنما تسمع أصحاب القلوب الحية الذين وصفهم بالإيمان بآياته -تبارك وتعالى-، فالآية تحتمل هذا وهذا، ولهذا تجد ابن كثير -رحمه الله- ربط بين المعنيين يعني إن كنت لا تسمع الموتى حقيقة، فكذلك موتى القلوب فإنهم بمنزلتهم، كما أنك لا تسمع الأموات فإن هؤلاء بمنزلة الأموات؛ لأنهم موتى القلوب فإنك لا تسمعهم سماعا ينفعهم هذا هو المراد، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أشار إلى هذا المعنى، ولا شك أن بين المعنيين ملازمة يعني الذين قالوا: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} حقيقة قالوا: هذا ذكر من أجل التوصل إلى المعنى المشار إليه، فكذلك هؤلاء لأنهم موتى، وإن كانت أرواحهم لم تفارق أجسادهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} [سورة الروم:٥٣] قال: **أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لما جاء** إلى آخره، فهم مسلمون، يعني هذا يحتمل أن يكون ذكر على سبيل الوصف لهؤلاء الذين ينتفعون، ويحتمل أن يكون ذلك مذكوراً للتعليل {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}، ولهذا يحصل لهم الانتفاع، ويسمعون سماع منتفع، يتعظون بما يسمعون، يعني كيف يكون {إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ}؟ أي:

---

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم(١٢٧/٢).

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم(٣٨٨).

الإسلام هو الخضوع والانقياد فهم خاضعون منقادون، فهؤلاء هم الذين يستمعون لك والفاء في "فهم" تعليلية الذين يسمعون سماع انتفاع هم الذين يؤمنون بآيات الله -تبارك وتعالى- وذلك أنهم خاضعون منقادون فهم مسلمون، هذا إذا حُمل على أن الفاء للتعليل.

{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} [سورة النمل:٨٢].

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يُخرج الله لهم دابة من الأرض -قيل: من مكة، وقيل: من غيرها كما سيأتي تفصيله- فَتُكَلِّم الناس على ذلك.

قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، ويُروى عن علي -رضي الله عنه-: تكلمهم كلاما أي: تخاطبهم مخاطبة.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فلنذكر ما تيسر منها -والله المستعان-:

روى الإمام أحمد عن حُذَيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: ((لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق -أو: تحشر- الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا))[٤]، وهكذا رواه مسلم، وأهل السنن عن حُذَيفة مرفوعا، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه مسلم أيضاً عنه موقوفاً، فالله أعلم.

روى مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال: حَفظْتُ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثًا لم أنسه بعد: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبًا))[٥].

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة))[٦].

روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج دابة الأرض، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان -عليهما السلام-، فتخطم أنف الكافر بالعصا،

---

٤ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٦١٤٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح كسابقه لكن اختلف في رفعه ووقفه، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، برقم (٢٩٠١)، وأبو داود، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة، برقم (٤٣١١)، والترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الخسف، برقم (٢١٨٣).

٥ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان والنفخ في الصور وبعث من في القبور، برقم (٢٩٤١).

٦ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، برقم (٢٩٤٧).

وتُجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر))[٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتعرض لمعني {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} في الأصل وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ} أي حق الغضب عليهم أي: وجب كما يقوله قتادة، وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي حق القول عليهم أنهم لا يؤمنون، {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ}، كما يقول مجاهد: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} حق القول بأنهم لا يؤمنون، وبعضهم يقول: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} أي حق العذاب، وهذا قريب من القول بأن المراد حق الغضب، وبعضهم يقول: المراد بذلك ما أخبر الله –عز وجل- به عن وقوع القيامة، فإن ذلك يكون من علاماتها الكبرى، وهناك أقوال أخرى كثيرة فيها، كقول من قال: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} يعني موت العلماء، ويبقى الناس في حال من الجهالة، وبعضهم يقول: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيبقى الناس في عماية، {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ}: من أقرب هذه الأقوال أنه حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، ويقرب من هذا قول من قال: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} وجب يعني حق العذاب أو وجب الغضب، هذه أقوال متقاربة، والله تعالى أعلم.

يقول: **يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل من مكة وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله**، وهذا كله لا دليل عليه، لا يوجد دليل صحيح يخبر عن المكان الذي تخرج منه هذه الدابة، توجد روايات لكنها غير صحيحة؛ ولهذا بعضهم يقول: مكة، وجاء في بعض هذه الروايات أنها تخرج من الصفا، وفي بعضها أنها من جبل أبي قبيس ، وبعضهم يقول: بين الركن والمقام، وبعضهم يقول: من تهامة، وبعضهم يقول: من الطائف، وكل هذا الكلام لا دليل عليه، {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ}، الله أعلم من أين، فهذا غير مهم في الواقع أن يعرف من أين تخرج، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ} يقول هنا: فتكلم الناس على ذلك، ونقل عن بعض السلف: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة، وبعضهم يقول: تخاطبهم ببطلان الأديان سوى الإسلام، {وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} يعني متى تخرج؟ إذا طلعت الشمس من مغربها خرجت الدابة ضحى، وإذا طلعت الشمس من مغربها فإنه {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [سورة الأنعام:١٥٨]، فتخبرهم عن حقية دين الإسلام وبطلان ما سواه من الأديان، هذا قال به جماعة من أهل العلم، وبعضهم يقول: تكلمهم بما ذكر بعده تكلمهم: {أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وبعضهم يقول تكلمهم بما يسوءهم، وبعضهم حمل ذلك على الكلْم الذي هو الجرح {تُكَلِّمُهُمْ} وابن عباس -رضي الله عنهما- لما سئل عن هذا حملها على ذلك كله، فهي تتكلم، وتسِم الناس سمة فتضع على الكافر علامة مثلا، سمة تضع عليه وسماً من الكلْم {تُكَلِّمُهُمْ} فحمله على المعنيين، وذلك أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة.

في قوله تعالى: {تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} الجمهور قرءوه بالكسر {تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} فبعضهم حمل المعنى في هذه القراءة {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ}، وأبهَمَ، أي

---

٧ - رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، برقم (٢٦٨٧).

يحتمل أن يكون المراد العلامة، أو أنها تتكلم كما يتكلم الآدمي بما ذكر أو بغيره -الله أعلم-، وأن ذلك على الاستئناف يعني هذا كلام جديد من الله –عز وجل- يقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} كلام جديد، ليس ذلك من قولها، باعتبار أنه مستأنف، وبعض أهل العلم يقول: على هذه القراءة يمكن أن يكون ذلك على تقدير القول: تكلمهم تقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وهذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- والقراءة الأخرى {أَنَّ النَّاسَ} وهي قراءة الكوفيين تكلمهم أن الناس، هذه توضحها قراءة ابن مسعود وهي غير متواترة، {تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون}، وهذه القراءة واضحة جداً لا إشكال فيها، فيكون ذلك من قولها، ويكون هذا هو التكليم المشار إليه في الآية، فالقراءتان يرجعان إلى معنى واحد، وبعضهم يقول: لا، هي تكلمهم، ثم ما بعده هذا كلام آخر من كلام الله –عز وجل- يقول: {إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}، وهذه الدابة بعضهم يقول: هي الجَسّاسة التي جاءت في الحديث الطويل في صحيح مسلم في قصة تميم الداري -رضي الله عنه- لما استقبلتهم دابة أهْلَبُ كثير الشعر، لا يُدرى قُبله من دبره، وكلمتهم وقالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق[٨]، وبعضهم يقول: هي فصيل ناقة صالح يعني ولد ناقة صالح، وهذا الكلام لا دليل عليه، وإن قال به بعض أهل العلم كالقرطبي -رحمه الله-، فالله أخبر أنها دابة، والبحث فيما وراء ذلك هو اشتغال بما لا يفيد، وليس عندنا فيه علم يمكن الركون إليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر)) الخوان هو الذي يؤكل عليه، الذي يوضع عليه الطعام.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيَّل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نَمر، وخاصرتها خاصرة هِرّ، وذَنَبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعًا، تخرج معها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نَكتَت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نَكَتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسودّ لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن؟، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان، أبشر، أنت من أهل الجنة، ويا فلان، أنت من أهل النار، فذلك قول الله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النمل:٨٢-٨٦].

---

٨ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، برقم (٢٩٤٢).

يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة، وحشْر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله -عز وجل-، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعًا وتوبيخًا، وتصغيرًا وتحقيرًا فقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا} أي: من كل قوم وقرن فوجًا، أي: جماعة، {مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا}، كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢]، وقال تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧].

وقوله: {فَهُمْ يُوزَعُونَ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يدفعون، وقال قتادة: وَزَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا} هذا حشر خاص غير الحشر العام، والحشر العام هو حشر الخلائق جميعاً في الآخرة، وهذا حشر خاص قيل هذا حشر لكبراء أهل الضلال، لأئمة الضلال كما قال الله -تبارك وتعالى-: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا} [سورة مريم:٦٨] على الرُّكب، يعني حول جهنم، ذاك حشر عام {ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} [سورة مريم:٦٩]، فهذا حشر من الحشر العام، يؤخذ هؤلاء الأئمة الكبار العتاة يبدأ بهم، وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا} يعني من كل قرن، من كل جيل، من كل طائفة، من كل أمة يحشر الله –عز وجل- فئة منهم هذا الحشر الخاص، وقوله -تبارك وتعالى-: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [سورة الصافات:٢٢] يعني ونظراءهم، وقوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧] ليس المقصود بالتزويج أن الرجل يزوج بالمرأة، وإنما يكون النظير مع نظيره، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} يعني ونظراءهم {فَهُمْ يُوزَعُونَ}، قال ابن عباس: يدفعون، و{يُوزَعُونَ} يعني يحبس أولهم على آخرهم، هكذا يحشر الخلائق، ثم يحشر هؤلاء العتاة الحشر العام ثم حشر العذاب الذي يبدأ به بهؤلاء العتاة، فيلقون في جهنم، فجهنم لا يلقى الناس فيها دفعة واحدة، وإنما يلقى القادة وأئمة الضلال قبلُ، ثم بعد ذلك يأتي الأتباع كما ذكر الله –عز وجل- ذلك، وبين خصومتهم في النار، {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ} [سورة ص:٥٩-٦٠] إلى غير ذلك مما قصه الله -تبارك وتعالى-، فيبدأ بالكبراء بعد الحشر العام فيلقون في النار ثم يتبع هؤلاء بأتباعهم -نسأل الله العافية-، ويحصل بينهم: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ} [سورة غافر:٤٧] الآية، وهنا {فَهُمْ يُوزَعُونَ} يحبس أولهم على آخرهم، فإذا أردت أن تتصور {يُوزَعُونَ} كما في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام- لما ذكر الله حشر جنوده {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [سورة النمل:١٧]، تصور قطيعاً ضخماً من الغنم مثلا معهم رعاة هذا يسوقها من خلفها، وهذا عن يمينها وهذا عن شمالها، وهذا يرد من يسرع منها ويتقدم إلى آخرها فيضيف بعضها إلى بعض، ويجمع إليها ما تفرق عنها وشذ، ويحبس أولها على آخرها بحيث لا تصل أفواجاً متقطعة، فهذا يصور طريقة الحشر، وكيف يساقون إلى النار -نسأل الله العافية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون.

{حَتَّى إِذَا جَاءُوا} أي: أُوقفوا بين يدي الله -عز وجل-، في مقام المساءلة، {قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: ويُسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة،

وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة:٣١-٣٢]، فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال تعالى: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات:٣٥-٣٧]، وهكذا قال هاهنا: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ} أي: بُهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظَلَمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا} فسره جمع من أهل العلم بأن المراد {أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي} ابتداءً من غير علم ولا إحاطة ولا بصر ولا نظر في دلائل ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ودلائل الحق والتوحيد والإيمان، يعني أنكم بادرتم بالكفر دون تبصر ولا نظر، ولا تأمل ولا معرفة، وإنما ابتدرتم ذلك عن جهل وعمى على سبيل العناد والمكابرة، ولم يصدر ذلك عن تمحيص وتفكير وتأمل، ودراسة للحجج والآيات التي جاءت بها الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا فيه عظة وعبرة لكل من بادر إلى تكذيب شيء دون نظر ولا تبصر، من غير دراسة ولا تمحيص، وإنما أنكره مباشرة ولم يقبله، تجد هذا في بعض المنتسبين للإسلام، ولربما يسمع الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيسرع إلى إنكاره وتكذيبه؛ لأن ذلك لم يتفق مع عقله القاصر وفهمه المعوج، يقول: هذا ما يكون، هذا كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: الحديث في الصحيحين! يقول: وإذا كان في الصحيحين! تجد هذه اللوثة كثيراً لدى بعض أبناء المسلمين، لربما الذين ذهب كثير منهم وتلقوا عن الغرب وتأثروا بمناهجهم في التفكير، وغلبت عليهم النزعة المادية، فصار الواحد منهم يبادر ويكذب بالنصوص ويجترئ على الله –عز وجل- من غير نظر ولا تمحيص ولا دراسة، ولا علم له بقليل ولا كثير، {أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فـ"أم" هذه هي المنقطعة، يعني أم أيُّ شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر في دلائل الحق وبراهين الإيمان، فما الذي جعلكم تتحولون عما يجب النظر فيه، والتعرف على حقيته بحيث أشغلكم ذلك عن هذا النظر والفكر والاستدلال؟، وقوله تعالى هنا: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} بعضهم يقول: كلمة العذاب فهم لا ينطقون، وبعضهم يقول: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم} يعني أنه يختم على أفواههم فهم لا ينطقون، فتشهد عليهم جوارحهم، فيكون قوله: {فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} تفسيراً لوقوع القول عليهم، ولعل الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم} أي حق العذاب {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة السجدة:١٣]، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} يعني من أهل العلم من حمله على معنى وهو النطق الذي ينفعهم والذي يحصل لهم به تخفيف، أو قبول عذر، أو تخلص من العذاب أو نحو ذلك، هم لا ينطقون نطقاً يحصل به النفع، لكنهم يتكلمون بدليل قوله تعالى عنهم: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [سورة الزخرف:٧٧]، و{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا} [سورة المؤمنون:١٠٧] وما شابه ذلك مما أخبر الله -عز وجل- به عن قول أهل النار، وعلى كل حال من أهل العلم من حمله على هذا {فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} جمعاً بين الآيات، ومن أهل العلم من قال: إن اليوم الآخر يوم طويل ففيه مقامات لا ينطقون، يختم على أفواههم،

فإذا شهدت عليهم الجوارح ثم بعد ذلك تنطق الألسن وتشهد عليهم ففي حين لا ينطقون، وفي حين ينطقون، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا مَحيد عنه، فقال: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ} **أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَب التعب في نهارهم،** {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} **أي: منيرًا مشرقًا، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها،** {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

هنا وصف النهار بكونه مبصراً، وهذا محمول على أن المراد -والله تعالى أعلم- أن الناس يبصرون به {مُبْصِرًا} أي: يبصر الناس به، فهو وصف للناس، مبالغة في إضاءته، وبعضهم يقول: هذا الكلام فيه مقدر: أن الله جعل الليل مظلماً {لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} لينتفعوا في معايشهم ويتقلبوا في الأرض طلباً للمكاسب، ولتحقيق مصالحهم، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النمل من الآية ٨٧ إلى الآية ٩٣

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النمل:٨٧-٩٠].

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع في الصُّور، وهو كما جاء في الحديث: "قرن ينفخ فيه"، وفي حديث الصُّور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض {إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تُحدِّث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله -أو: لا إله إلا الله، أو كلمة نحوهما- لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا يخرب البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين -لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا- فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه. ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلَتْه عليه حتى تقبضه". قال: سمعتها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: "فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقُهم، حسنٌ عيشُهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا ورفع لِيتا قال: "وأول مَنْ يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله"، قال: "فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس، ثم يرسل الله -أو قال: ينزل الله- مطرًا كأنه الطَّل -أو قال: الظل- نُعمان الشاك- فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها

الناس، هلموا إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيبا، وذلك يوم يكشف عن ساق))[1].

وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتا ورفع لِيتا" الليت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا.

فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} قُرئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكلٌ بمعنى واحد، و{دَاخِرِينَ} أي: صاغرين مطيعين، **لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى:** {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [سورة الإسراء:٥٢]، **وقال:** {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [سورة الروم:٢٥]، **وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح، فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، تتوهج أرواح المؤمنين نورًا، وأرواح الكافرين ظُلمة، فيقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يَدب السم في اللديغ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى:** {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [سورة المعارج:٤٣].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، قوله -تبارك وتعالى- هنا {إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ} قال الحافظ: **وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون**، وبعضهم يقول: الأنبياء، وبعضهم يقول: الملائكة، وبعضهم يقول: جبريل وميكال وإسرافيل، وبعضهم يقول: الحور العين، وبعضهم يقول: عموم المؤمنين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، وهذه الأقوال في الواقع لا ترجع إلى تفسير واحد، بمعنى أن هذه الأقوال منها ما مبناه على أن هذه النفخة هي نفخة الصعق يفزع الناس ويصعقون وأن نفخة الفزع هذه هي نفخة الصعق، وأنهما نفختان لا ثالث لهما نفخة الصعق، والنفخة الأخرى هي نفخة البعث، وهذه الأقوال التي تذكر في التفسير هي لا ترجع إلى شيء واحد، أو إلى قول واحد، يعنى لا ترجع إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مثلاً، أو أنه يكون ثلاث مرات، فحينما يقال: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ} [سورة الزمر:٦٨]، فالذي يقول مثلا: الحور العين يرجع إلى الصعق بمعنى أن الحور العين لا يمتنَ، ولا يرجع إلى الفزع، يعنى أن هؤلاء العلماء الذين فسروا هذا الاستثناء منهم من يرى أنهما نفختان، فحينما يقول ففزع من في السموات والأرض يعنى وصُعق {إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ} من الذي لا يحصل له هذا

---

١ - رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان والنفخ في الصور وبعث من في القبور، برقم (٢٩٤٠).

الصعق يقول: الحور العين، ويمكن أن يكون من هذا أيضا قول من قال بأنه جبرائيل وإسرافيل و ميكائيل، أو أنهم الملائكة، لكن من قال بأنها نفخة الفزع، وأن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات، فهذه نفخة الفزع، فقول من قال: إنهم عموم أهل الإيمان واضح أنه يعنى أنها نفخة الفزع؛ لأنه يحتج بقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} وهكذا قول من قال: إنهم الأنبياء؛ لأن الأنبياء لا يوجدون في وقت النفخ إذا قلنا: إن هذه نفخة الصعق فيخرجون من حكمها فلا يموتون أو لا يصعقون، فهذا لا يتأتى على هذا القول، المقصود أن نعلم أن هذه الأقوال في الاستثناء لا ترجع إلى قول واحد في النفخ في الصور، والمشهور أن النفخ في الصور يكون مرتين، نفخة يصعق الناس فيها، وهذه تكون للأحياء الذين تقوم عليهم الساعة، والنفخة الثانية هي نفخة البعث والنشور، وهذه لكل الخلائق الذين ماتوا سواء حتف أنفهم أو ماتوا بسبب الصعق، وهذه الآية: {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ}، هنا ذكر الفزع فقط ولم يذكر الصعق، ومن هنا ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن نفخ الصور يكون ثلاث مرات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث، وهذا قول لجماعة من أهل العلم، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى على هذا القول ثم الحديث الذي ذكره حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنه- هنا قال: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، وقال: أول من يسمعه رجلاً يلوط حوض إبله، فيصعق، إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، يكون هذا الرجل أول من يسمع فيحصل له الصعق فذكر الصعق هنا، فالذين قالوا هما نفختان قالوا: إذا سمعوه فزعوا ومن شدة الفزع يصعقون، وقد عذب الله -عز وجل- بعض الأمم بالصيحة -صوت هائل-، إذا سمعوه طارت قلوبهم من شدة الفزع فماتوا فهلكوا، فذكر هنا أنهم يصعقون قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل أو قال: الظل، والمرجح عند أهل العلم هو الأول كأنه الطل، كما جاء في الحديث: ((ينزل مطر من السماء كأنه مني الرجال، فينبتون كما تنبت الأجساد))[٢]، كأنه الطل ويقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} قرئ بالمد وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحد، قراءة الجمهور {وكل آتُوه داخرين} بالمد، وقراءة حمزة وحفص والكسائي {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، وفي قراءة غير متواترة لبعض السلف قرأ بها قتادة {وكل أتاه داخرين}، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور إلى آخره هذا عند الطبراني، قال في الطوال لكنه من غير إسناد عند الطبراني -والله تعالى أعلم-، فابن كثير -رحمه الله- والشوكاني وجماعة قالوا: إن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات على ما وصف، ومن أهل العلم كالقرطبي وجماعة يقولون: هما نفختان، وإن نفخة الفزع لا تخرج عنهما فهي عائدة إليهما، بمعنى أنهم يفزعون فيحصل لهم الصعق.

---

٢ - رواه الحاكم في المستدرك، برقم (٨٥١٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٩٧٦١)، وضعفه الألباني في تحقيق شرح الطحاوية (٤٦٣).

وقوله: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [سورة الطور:٩-١٠]، وقال {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧].

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}** قال: **أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه {وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}** يعني: تزول من أماكنها، هذه الرؤية **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً}** هي رؤية عين وليست برؤية علمية، وهذه الرؤية هل هي في الدنيا أو أنها في الآخرة كما ذكر الله -عز وجل- أن الجبال يحصل لها ما وصف من أنها تُدك، وتبس، وتكون كالهباء المنثور، وأنها تسير، فيكون لها ذلك في أهوال القيامة في أول ما يجري لها، ثم بعد ذلك تسير، وبعضهم يقول: في المحشر إذا حشر الناس، والمقصود أن ذلك في اليوم الآخر هذا الذي دل عليه القرآن في هذا الموضع، وفي غيره من المواضع، فالله -تبارك وتعالى- ذكر النفخ في الصور فقال: **{وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}**، ثم ذكر حال الجبال **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}**، ثم ذكر الجزاء: **{مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ}** فهذا كله في اليوم الآخر، وقد جاءت هذه الآية في ثنايا الخبر عن ذلك اليوم، وهذا الذي عليه السلف -رضي الله تعالى عنهم- قاطبة، وعليه أهل العلم من المفسرين عبر القرون المتطاولة، والآيات التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا تدل على هذا المعنى **{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}** [سورة الطور:٩-١٠]، **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}** [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، **{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}** [سورة الكهف:٤٧]، كل هذا وغيره يدل على أن ذلك في اليوم الآخر، وبعض المعاصرين يقول: إن ذلك يكون في الدنيا وهو وصف لحالها الآن، ومرادهم بذلك أن الجبال تمر مر السحاب، تمر تمضي تتحرك لكن لا بمفردها على سبيل الاستقلال، وإنما تتحرك بحركة الأرض، قالوا: فهذا دليل على دوران الأرض، الأرض تدور والجبال تدور معها، والناظر والمشاهد لها لا يدرك ذلك، مع أن الله قال: **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}** كيف خاطبهم بما لا يدركون ولا يعرفون ولا يشاهدون؟ ولم يقل أحد: كيف تتحرك ؟ كيف تجري ونحن نجدها في أماكنها؟ فبعضهم يقول: إن الله -تبارك وتعالى- أطلع على ذلك نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا وجه الخطاب له على سبيل الخصوص قال: **{وَتَرَى الْجِبَالَ}** وترى يا محمد مع أن أكثر المفسرين يقولون: إن الخطاب جاء هنا بصيغة المفرد، والمراد به العموم، وإن ذلك لا يختص بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود أن بعض هؤلاء يقول: إن الله أطلع عليه نبيه -صلى الله عليه وسلم- وخصه به، ولكن لم يكشف ذلك إلا في القرون المتأخرة، وقبل ذلك ما كانوا يعرفون.

وأنا أقول في مثل هذه المناسبة: إن الإنسان قد يقرأ في بعض التفصيلات، أو بعض ما يسمى بالدراسات والبحوث، ولربما لبّست عليه بعض ما يعرف، قد يحصل هذا، فما المخرج؟ بمعنى هذه طريقة في التفكير والفهم و الوصول إلى النتائج السليمة من أجل ألا يقع الإنسان ضحية لمفاهيم غير صحيحة، قد تقرأ بعض الدراسات و بعض البحوث، وبعض الأرقام، وفي أي موضوع من الموضوعات في قضية غير صحيحة، غير دقيقة، ولكن الإنسان قد يحصل له بسبب ذلك شيء من اللبس، فإما أن يبقى متحيراً، وإما أن يصدق ذلك، ويقبل، ويتلقف بعض المفاهيم غير الصحيحة، والمخرج أنه يرجع إلى الأصول الكلية، فإذا خرج إلى الأصول الكلية لم يبقَ في أسر هذا البحث أو هذه الكتابة أو هذه المحاولة أو هذه الدراسة، تجد بعض البحوث و الكتابات التي تنشر أحياناً في النت أو في بعض الكتب، أو بعض الكاتبين لربما يَعمل لك دراسات و أرقاماً وإحصاءات وأشياء على أن الساعة ستقوم عام (٢٠١٢م)، وإذا قرأت المعطيات التي ذكرها لربما يلتبس هذا على بعض الناس، ويصدق، ولكنك إذا رجعت إلى الأصول الكلية - أعني الأشياء التي ستكون قبل الساعة- والذين تقوم عليهم الساعة فهناك عندنا المهدي، والمسيح سيمكث في الناس سبع سنين، والحال التي يأتي فيها، الناس يقاتلون بالسيوف، هذا يعنى أن معطيات الحضارة هذه غير موجودة، يعلقون سيوفهم بأغصان الزيتون فيصيح فيهم الشيطان ويقول: إن الدجال خلَفَكم في أهليكم، فيرجعون في فتح القسطنطينية، وهو فتح غير الفتح الأول على يد محمد الفاتح، وأنهم يكبّرون، مدينة شطرها في البر وشطرها في البحر، وهذا قد لا يصدق على القسطنطينية، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فتح مدينة هرقل عموماً، و لم تفتح بالتكبير، وذاك الفتح يبدأ بالتكبير، فبعضهم يصف مدينة أخرى، الشاهد أنها ستفتح بالطريقة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- والناس يقاتلون بالسيوف، وإذا خرج يأجوج ومأجوج فقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الناس يوقدون -بعد هلاكهم- على نشابهم سبع سنين من أهل الأيمان، و النشاب هي السهام فهذه الأعواد التي يكون في رأسها الحديدة يوقد الناس على هذه من كثرتها سبع سنين، ودل على أنهم يوقدون بالحطب، ويقاتلون بالسهام فهذا البحث الذي يقول عام ٢٠١٢م، وقرأه بعض الناس والتبس عليه الأمر وخاف، هذا كلام غير صحيح، لا يمكن أن يكون عام ٢٠١٢م ما يمكن أن تقوم فيه، وذكر أشياء و دراسات و أموراً فيه ومثل هذه الدراسات يسجّر بها التنور، فعندنا أشياء ثابتة، عندنا أشياء حق لا مرية فيها بعيداً عن التكهنات والتخرصات والتحليلات، والقسمة و الطرح، وهنا حينما يقال: إن هذا في الدنيا وإن الكرة الأرضية تدور، وهذا معنى **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}**، نرجع إلى أصل كلي وهو أنه لا يمكن أن تُجمع الأمة على ضلالة، لا يمكن أن هؤلاء السلف من الصحابة عبر القرون المتطاولة كلهم يفهمون الآية خطأ، ويقولون: هذا في اليوم الآخر ثم يأتي أحد في آخر الزمان و يقول: هذا خطأ، والصحيح أنها في الدنيا، وأنها تدور بدوران الأرض، فيُشترط في التفسير العلمي ألا يعود على أقوال السلف بالإبطال، يعنى ينبغي أن يكون من باب الزيادة، وقد يكون فهماً يؤتيه الله رجلاً في كتابه لكن يعود على أقوال السلف كلها بالبطلان!، كلهم فهموا خطأ، ما أحد منهم فهم الآية على وجه صحيح! هذا كلام لا يمكن، فهذا أصل كلي، فإذا التبس

على الإنسان، اختلف عليه الأمر بسبب ما يقرأ دائما ينبغي أن يرجع إلى الأصول الكلية، وإلا فسيبقى أسيراً لهذا الكاتب، هذا منجاة بإذن الله -عز و جل- و يبقى الإنسان على الجادة، والله تعالى أعلم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} إذا قلنا: إن ذلك في اليوم الآخر كما دل عليه القرآن والسياق، هنا يدل أيضا على أنه في الآخرة {تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} ما المعنى على هذا؟ كما قال ابن جرير وابن قتيبة وجماعة من الأئمة بأن ذلك يكون في الأجرام الكبيرة، فإن حركتها قد لا تدرك بالعين لأول وهلة، يعنى: الناظر إلى الجيش كما هو معروف، وكما جاء في أشعار العرب جيش كبير يتحرك -لماذا سمي بالزحف- جيش يتحرك إذا نظرت إليه كأنه واقف، لكن لو نظرت بمكبر من بعيد نظرت إلى أرجل الدواب وأرجل الناس تجد أنها تتحرك لا تتوقف، لكن ترى الجيش كأنه في مكان واحد، وهو يمشي، ويقطع المسافات فهذه الجبال تجمع وتسير فتكون في رؤية العين كأنها قائمة، كأنها واقفة، وهي تسير فهي لكثرتها وضخامتها إذا نظر إليها الناظر لا يدرك أو لا يشعر بحركتها في اليوم الآخر كأنها واقفة وهي تُسير، والعلماء يذكرون على هذا شواهد من كلام العرب في وصف الجيوش مما يوافق هذا المعنى.

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضا أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على المعنى، بكونه هو الغالب في القرآن; لأن غلبته فيه، تدل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معا آية "النمل" هذه.

وإيضاح ذلك أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة، أي: واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مر السحاب، ونحوه قول النابغة يصف جيشا:

بأرْعنَ مثلِ الطَّودِ تحسبُ أنهم *** وقوفٌ لِحاجٍّ والركابُ تُهملجُ"[٣].

"والركاب تهملج" يقول: كأنهم أي الحجاج وقوف بعرفة مثلاً والركاب في الواقع أنهم يمشون، فالركاب تهملج فهي سائرة لا تتوقف، لكن شكلهم كأنهم في حال من الوقوف.

وقال -رحمه الله-: "والنوعان المذكوران من أنواع البيان، يبينان عدم صحة هذا القول.

أما الأول منهما وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته: فهو أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ} معطوف على قوله: {فَفَزِعَ}، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (١٤٤/٦).

فِي السَّمَاوَاتِ}، أي: ويوم ينفخ في الصور، فيفزع من في السماوات وترى الجبال، فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور، لا الآن.

وأما الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح; لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة ; كقوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}، وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧]، وقوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [سورة النبأ:٢٠]، وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [سورة التكوير:٣].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}: جاء نحوه في آيات كثيرة; كقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [سورة المؤمنون: (١٤)]"[٤].

فالذين قالوا: هذا في الدنيا الواو تكون للاستئناف وليست عاطفة.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وقوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة.

وقوله: {صُنْعَ اللَّهِ} منصوب على المصدر، و بعضهم يقول: على الإغراء، صنع الله.

الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} قال قتادة: بالإخلاص.

وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها.

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} الحسنة إذا قلنا: إن "ال" هذه للجنس، وليست للعهد -جنس الحسنة- فله خير منها، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الحسنة بعشر أمثالها))[٥]، والله -عز وجل- ذكر هذا {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [سورة الأنعام:١٦٠]، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، هذه قرينة حملت كثيراً من أهل العلم على القول بأن الحسنة هنا يراد بها حسنة خاصة، وهي حسنة الإيمان، حسنة لا إله إلا الله، حسنة التوحيد، فإنه لا يحصل الأمن إلا لأهلها {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢] فهؤلاء هم الذين يحصل لهم الأمن بقدر إيمانهم، فهم يتفاوتون في هذا الأمر في اليوم الآخر بحسب ما يتحقق لهم من هذا الوصف الذي هو الإيمان، فقال هنا: {وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} ولهذا فسر ابن جرير -رحمه الله- و غيره هذه الحسنة بما ذكر، و لا فرق بين من عبر عنها بـــ لا إله إلا الله، أو قال: التوحيد أو قال: الإيمان فكل ذلك صحيح، والسيئة هي الشرك؛ لأنه قال: {فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} وهذا لا يكون إلا لأهل الإشراك، و ليس لجنس السيئات، ثم إن المقابلة بين هذه الحسنة وبين هذه السيئة، وذكْر جزاء هذا وهذا دل على أن الآية يراد بها الإيمان والكفر، حسنة الإيمان

---

٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي (١٤٥/٦).

٥ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، برقم (٤١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوّت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يومٍ وإفطار يوم، برقم (١١٥٩).

وسيئة الكفر، كما قال الله -تبارك وتعالى- أيضا: {بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [سورة البقرة:٨١] ما هي السيئة والخطيئة التي تحيط بصاحبها؟ هي الشرك.

{وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، **كما قال في الآية الأخرى**: {لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ} [سورة الأنبياء:١٠٣]، **وقال**: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة فصلت:٤٠]، **وقال**: {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سورة سبأ: ٣٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} على قراءة أبي عمرو وابن عامر وابن كثير -القراءة متواترة- {من فزعٍ يومئذٍ} على الإضافة، يعنى فزع ذلك اليوم، هذا في هذه القراءة، وعلى القراءة الأخرى {وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ} هذا الفزع بعضهم فهم منه فزع النفخة التي في قوله: {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ}، فقال: هذا فزع معين فلا يفزعون بسببه، ولذلك من أهل العلم من قال: إنهم أهل الإيمان، هم الذين استثناهم الله {فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ} قالوا: هم من ذكر الله -تبارك وتعالى-: {مِنْ فَزَعٍ} فزع معين فزع خاص، ولو قيل: إن القراءتين ترجعان إلى معنى واحد يعني أيّ فزع فهذا من قبيل المطلق، والمطلق فيه شمول لكنه على سبيل البدل فيصدق على الإفراد على سبيل البدل، فأي فزع في ذلك اليوم هم آمنون منه، كما يدل عليه القرآن {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} [سورة الأنعام:٨٢]، وهكذا {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [سورة الأنبياء:١٠٣]، {أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة فصلت:٤٠]، والله تعالى أعلم، الفزع الذي يصيب الناس في اليوم الآخر، ولا يلزم من ذلك أن يدخل فيه نفخة الفزع، فيقال: إنهم لا يفزعون منها؛ لأن هذه النفخة تكون قبل اليوم الآخر، يعنى تكون بين يديه فيحصل هذا الفزع فقيل: هي نفخة الصعق، فيحصل بعد ذلك نفخة البعث فيكون الناس في المحشر، ويكون أهل الإيمان في حال من الأمن، والكفار في حال من الخوف -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من جعل ذلك مستثنى مما ذكره الله -عز وجل- في هذه النفخة، نفخة الفزع.

وقوله: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} **أي: مَنْ لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته، كل بحسبه؛ ولهذا قال**: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

وبعض أهل العلم نقل الإجماع على أن المراد بالسيئة هنا هي الشرك، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم، {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ} هو أولى من أن يقال: رجحت سيئاته على حسناته، فهنا قابل حسنة بسيئة، و ذكر جزاء الحسنة و جزاء السيئة، مما ظاهره -والله تعالى أعلم- أن الحسنة هي الإيمان، والسيئة هي الشرك وهذا -كما سبق- نقل عليه بعضهم الإجماع، و قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} بعضهم يقول: القائل هم خزنة جهنم، والله -عز وجل- أعلم بذلك، لكنه يقال لهم: هذا تقوله لهم الملائكة، أو غير ذلك، والعلم عند الله -عز و جل.

{إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة النمل:٩١-٩٣].

يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ}، **كما قال:** {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ} [سورة يونس:١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [سورة قريش:٣-٤].

ولهذا قال: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} يعنى لئلا يتوهم أن ربوبيته -تبارك وتعالى- تختص بالبلدة، تختص بمكة، هذه إضافة تشريف، ولا يدل ذلك على الاختصاص، والمحترزات تأتي في القرآن في كل موضع بحسبه، بحسب الحاجة إما لدفع توهم الحصر، كما في هذا الموضع مثلا: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ}.

وقوله: {الَّذِي حَرَّمَهَا} **أي: الذي إنما صارت حرامًا قدرًا وشرعًا، بتحريمه لها.**

قدرًا وشرعًا بمعنى أن الله -عز وجل- حينما خلق الخلق {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [سورة القصص:٦٨]، اختار هذه البقعة لتكون حرما، فهذا معنى أن الله -تبارك وتعالى- جعلها حرما قدرا واختارها هذا الاختيار، **وشرعا** أن الله أمر بمراعاة ذلك فيها، فلا يقتل صيدها ولا يعبد شجرها.

كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة)).

حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهذا تحريم قدري، وحين خلق السموات والأرض ما كان فيه ناس.

((لا يُعضَد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لِمَنْ عرفها، ولا يختلى خلاها))[٦]، **الحديث بتمامه.**

هذا التحريم الشرعي.

وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد.

وقوله: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ}: **من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه،** {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} **أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له.**

وقوله: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} **أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله:** {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [سورة آل عمران:٥٨]، **وكقوله:** {نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة القصص:٣] **أي: أنا مبلغ ومنذر.**

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحرم، برقم (١٥١٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، برقم (١٣٥٣).

قوله: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} هنا حمله على تلاوة البلاغ، أن أتلوَ القران على الناس تبليغا له، ويدخل فيه التلاوة تعبداً، فيؤخذ من عموم الآية هذا المعنى {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} [سورة العنكبوت:٤٥] فيدخل في ذلك قراءة القرآن على سبيل التعبد، وللتدبر والعمل، والامتثال، فيحتج بمثل هذه الآيات على أن تلاوة القرآن مطلوبة من المكلفين.

{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ} أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله، كقوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [سورة الرعد:٤٠]، وقال: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [سورة هود: ١٢].

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا}، أي: لله الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [سورة فصلت:٥٣].

{سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} فسره بقوله: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فتعرفونها: يعني أنها حق، وإن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق، فهي آيات دالة على صدقه، وصدق ما جاء به أنه رسول من عند الله -تبارك وتعالى- يؤيد بالآيات الكونية، والآيات الشرعية، ويؤيد بالآيات التي تكون في الآفاق والأنفس.

وقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} أي: بل هو شهيد على كل شيء.

وقد ذكر عن الإمام أحمد -رحمه الله-، أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَومًا فَلا تَقُل * خَلَوتُ وَلكنْ قُل عَليّ رَقِيبُ**

وَلا تَحْسَبَنّ الله يَغْفُل ساعةً * وَلا أنّ مَا يَخْفى عَلَيْه يَغِيبُ**

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة.